موجز عن الدولة العثمانية

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره الشريف)

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ ١٩٩٨م

مركز الرسول الأعظم (ص) للتحقيق والنشر
بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قل
سيروا في الأرض
ثم انظروا
كيف كان
عاقبة المكذبين

سورة الأنعام: ١١

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا أردنا ان نبني مستقبلاً أفضل لا بد ان نقرأ الماضي حتى نقف على الأخطاء السابقة فلا نكررها. وقراءة التاريخ تتكفل نوعاً ما بذلك.

وعند ما نقرأ تاريخ الأمة الإسلامية نراها مليئة بالنقاط الإيجابية المشرقة التي أخذت تغزو جميع حضارات العالم أخذت تتقدم يوماً بعد يوم حتى بلغ المسلمون ما بلغوا من المجد والعزة، والتقدم في جميع مجالات الحياة مم اعترف به علماء الغرب وسموا المسلمين بآباء العلم الحديث، وكان كل ذلك بفضل التعاليم الإسلامية التي بينها وطبقها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل بيته الطاهرون (عليهم السلام). ولكن شيئاً فشيئاً أخذت ألأمه الإسلامية تتقهقر وحصل ما

حصل اليوم من التأخر الغريب للمسلمين !! لماذا ؟؟ .

عند دراسة التاريخ يتبين بوضوح ان هناك عوامل كثيرة أدت بنا الى ذلك، ومن أهمها: سيطرة الحكام غير اللائقين على البلاد الإسلامية، والذين حكموا باسم الإسلام ولم يكونوا يعرفوا من الإسلام شيئا، فاخذوا بأزمة الحكم مستبدين في سياستهم، ديكتاتوريين في تصرفاتهم، ضاغطين على الشعب، مصادرين لأبسط حرياته، منشغلين عن إدارة العباد والبلاد بشهواتهم واهوائهم، على عكس ما أمر به الإسلام من الشورى في الحكم وحرمة الاستبداد ووجوب رعاية حقوق الشعب وتضمين حرياته الإسلامية و...

ومن هؤلاء الحكام: السلاطين العثمانيون الذين حكموا ستمائة سنة !! وتوالى منهم على عرش الحكم ستة وثلاثون سلطاناً، وكان منهم من ارتكب من الأعمال ما تقشعر منه الأبدان، وكان منهم السفاكون الظالمون، والمبذرون المسرفون، والمهملون الجاهلون، والغارقون في بحور اللهو والخلاعة، واللعب بالحسان من البنات والبنين!! التاركين للواجبات والفاعلين لأشد المحرمات، فكانوا لا يرحمون حتى اخوتهم وأولادهم فيكف بشعوبهم وكيف بسائر الناس من المسلمين وغير المسلمين.. على خلاف صريح القرآ ن وسنة الرسول (صلى الله عليه وآله

وسلم) وسيرته في أول حكومة إسلامية شكلها في المدينة المنورة.

هذا وقد اهتم المرجع الديني الأعلى الإمام الشيرازي (دام ظله) اشد الاهتمام بالقضية الإسلامية، أبدى كبير حرصه على ان يستيقظ المسلمون ويستعيدوا عزهم ومجدهم، ويرجعوا الى حضارتهم الفائقة ولذلك خصص قسماً كبيراً من تأليفا ته القيمة التي تجاوزت آلف كتاب وكراس بهذا الموضوع.

وهذا الكتاب الذي بين يديك . أيها القاري العزيز . تلخيص لتاريخ الدولة العثمانية، وسترى فيه البون الشاسع بين الحكومة الإسلامية وتعاليمها وبين هؤلاء الذين حكموا باسم الإسلام وكانوا من أهم أسباب تأخر المسلمين ... فرأينا طباعته ليكون من مقدمات إنهاض المسلمين بعونه تعالى وما ذلك على الله بعزيز .

مركز الرسول الأعظم (ص) للتحقيق والنشر

بيروت . لبنان

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

وبعد: فهذا موجز مبسط في تاريخ العثمانين، وهو تلخيص لكتاب (تاريخ الدولة العثمانية)[1].

اخترته لبيان بعض أسباب تأخر المسلمين وانقسام بلادهم وتشتتهم وتقدم الغرب عليه، بعد ما بلغت الحضارة الإسلمية أوجها حينما كان الغرب في تأخر كبير وكبير.

وما كان ذلك الا لابتعاد المسلمين وخاصة حكامهم عن التاليم الإسلامية ومخالفتهم للسيرة النبوية الشريفة (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلوب أمير المؤمنين علي عليه السلام في الحكم، فشوهوا بأعمالهم سمعة الإسلام وأخروا الأمة الإسلامية ومهدوا الطريق لسيطرة الأعداء على بلاد المسلمين.

نسأل الله سبحانه ان يوفق المسلمين لاسترجاع عزهم والعود الى حضارتهم والرجوع الى سنته تعالى، انه سميع مجيب.

(موجز عن الدولة العثمانية) تلخيص (تاريخ الدولة العثمانية) بقلم محمد الشيرازي والله المستعان.

قم المقدسة

١-

مؤسس الدولة العثمانية

مؤسس هذه الدولة هو (أرطغرل بن سليمان شاه التركماني) قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى، وذلك إنه كان راجعاً إلى بلاد العجم بعد موت أبيه غرقاً عند اجتيازه أحد الأنهر، إذ شاهد جيشين مشتبكين، فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية، ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه إن لم يمد إليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين وهاجم الجيش الثاني بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، لولا هذا المدد الفجائي، وأعمل فيهم السيف والرمح ضرباً ووخزاً حتى هزمهم شر هزيمة وكان ذلك في أواخر القرن السابع للهجرة.

وبعد تمام النصر عمل (ارطغرل) لنجدة الأمير (علاء الدين) سلطان (قونية) إحدى الإمارات السلجوقية فكافأه (علاء الدين) على مساعدته له بإقطاعه عدّة أقاليم ومدن.

ولما توفي (أرطغرل) سنة ٦٨٧هـ[٢] عيّن (الملك علاء الدين) أكبر أولاده[٣] مكانه (عثمان) مؤسس الدولة العثمانية.

وفي هذه السنة ولدت زوجته (مال خاتون) ولداً ذكراً وهو (أورخان).

ولم يلبث (عثمان) أن تحصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة (قرة حصار) سنة ٦٨٨هـ[٤] فمنحه الملك في السنة المذكورة لقب (بك) وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها ، وأجاز له ضرب العملة ، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة، وبذلك صار (عثمان بك) ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب.

٢-الموافقة سنة ١٢٨٨م.

٢- أي أولاد (أرطغرل).

٤- الموافقة سنة ١٢٨٩م.

وتقريباً في سنة ٦٩٩ هـ [٥] أي السنة المتممة للقرن السابع من التاريخ الهجري أغارت جموع التتار على بلاد آسيا الصغرى وفيها كانت وفاة (علاء الدين) آخر السلجوقيين بقونية، قيل: قتله التتر، وقيل: قتله ولده (غياث الدين) طمعاً في الملك.

ولما قتل التتار (غياث الدين) أيضا انفتح المجال (لعثمان) فاستأثر بجميع الأراضي المقطعة له ولقب نفسه (بادي شاه آل عثمان) وجعل مقر ملكه مدينة (يكي شهر)[٦] وأخذ في تحصينها وتحسينها ثم أخذ في توسيع دائرة أملاكه (أزميد) ثم (ازنيك).

ولما لم يتمكن من فتحها عاد إلى عاصمته واشتغل في تنظيم البلاد حتى إذا أمن اضطرابها وتجهز للقتال أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب[٧] فأسلم بعضهم وانضم إليه، وقبل البعض دفع الخراج، واستعان الباقون على (السلطان عثمان) بالتتار واستدعوهم لنجدتهم، لكن لم يعبأ بهم (السلطان عثمان) بل هيأ لمحاربتهم جيشا جراراً تحت إمرة ابنه (أورخان) فسار إليهم هذا الشبل ومعه عدد ليس بقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم (كوسه ميخائيل) صديق (عثمان) الذي اختار الإسلام ديناً، وبعد محاربة عنيفة شتت شمل التتار، وعاد مسرعاً لمحاصرة مدينة بورصة، فحاصرها سنة ٧١٧هـ[٨]، وللتمكن من فتحها بسهولة هاجم حصن اردنوس الكائن على قمة جبل أولمب فدخله عنوة ثم دخل مدينة بورصة بعد أن فتح كافة ما حولها من القلاع والحصون وحاصرها نحو عشر سنوات من غير حرب ولا قتال، إذ أرسل ملك القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب فأخلاها ودخلها (أورخان) وعساكره ولم يتعرض لأهلها بسوء مقابل دفع ثلاثين ألف من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (افرينوس) وأعطى له لقب (بك) وصار من مشاهير قواد العثمانيين.

وعقب ذلك بقليل استدعي (أورخان) إلي والده فوجده في حالة النزع، ولم يلبث أن

٤- الموافقة سنة ١٣٠٠م.

٥- يكي شهر: تقع شمال شرق مدينة بورصة.

٦- وعندما تقرأ تاريخ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام أمير المؤمنين عليه السلام ترى الفرق الكبير بين طريقتهم (عليهم السلام) وطريقة هؤلاء.

١- الموافقة سنة ١٣١٧م.

أسلم الروح إلي بارئ النسمات ومبدع الكائنات، بعد أن أوصى للملك بعده (أورخان) ثاني أولاده المولود في سنة ٦٨٠هـ[٩] لاتّصافه بعلو الهمة والشجاعة والإقدام ولم يوص بها لبكر أولاده (علاء الدين) لميله إلي الورع والعزلة، وتوفي في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦هـ[١٠] عن سبعين سنة قضى معظمها في تأسيس هذه الدولة.

ومن حسن حظ هذه الدولة أن (علاء الدين) لم يعارض هذه الوصية ، واكتفى بوزارة المملكة (الصدارة العظمى)[١١] التي قلده إيّاها أخوه (اورخان).

ومن أهم أعمال (علاء الدين) أن أمر بضرب العملة من الفضة والذهب، ووضع نظاما للجيوش وجعلها دائمية، إذ كانت قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحرب وتصرف بعده، ثم خشي من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع إليها وانفصام عرى الوحدة العثمانية التي كان كل سعيهم في إيجادها، فأشار عليه أحد فحول ذلك الوقت واسمه (قرة خليل) وهو الذي صار فيما بعد وزيرا أولا باسم (خير الدين باشا) بأخذ الشبان من أسرى الحرب و فصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم معهم، فأعجب السلطان (أورخان) هذا الرأي وأمر بإنفاذه.

ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم إلى (الحاج بكطاش) شيخ طريقة البكتاشية بأماسية ليدعو لهم بخير، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال: فليكن اسمهم (يني تشاري) يرسم بالتركية هكذا (يكيجري) أي الجيش الجديد، ثم حرف في العربية فصار (انكشاري).

ثم ارتقى هذا الجيش في النظام وزاد عدده حتى صار لا يعول إلا عليه في الحروب، وكان هو من أكبر وأهم عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية، كما أنهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدوا واستبدوا بما جعلهم سببا في تأخر الدولة وتقهقرها.

واستمرت هذه الفئة عونا للدولة على أعدائها، حتى تغيرت أحوالها وازداد طغيانها

٩- الموافقة سنة ١٢٨١م.

١٠- الموافقة سنة ١٣٢٦م.

٣- اي رئاسة الوزراء باصطلاح اليوم.

وانقلبت فوائدها مضرات. فأبطلها (السلطان محمود الثاني) بعد أن قتل أغلبهم في يوم العاشر ذي القعدة سنة ١٢٤١هـ[١٢] لمقاومتهم إجراءات السلاطين وعصيانهم عليهم وتعديهم على حقوقهم المقدسة.

اما (اورخان) أول عمل أجراه هو نقل مقر الحكومة إلى مدينة بورصة لحسن موقعها وارسل قواد جيوشه المظفرة لفتح ما بقي من بلاد آسيا الصغرى.. ولم يبق من مدن الروم المهمة ببر آسيا إلا مدينة ازنيك فحاصرها وضيّق عليها الحصار حتى دخلها بعد سنتين فسقط بسقوطها نفوذ الروم في بلاد آسيا.

ولما نزل العثمانيون بساحل أوروبا تحققوا ضعف مملكة الروم وما آلت إليه من الانحلال فأخذ (السلطان أورخان) في تجهيز الكتائب سرا لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط على الشاطئ الأوروبي تكون مركزا لأعمال العثمانيين في أوروبا، حتى إذا سنحت الفرص وساعدت المقادير حاصروا مدينة القسطنطينية برا وبحرا ودخلوها فاتحين.

وفي سنة ٧٦٠هـ[١٣] توفي (سليمان باشا) ولي عهد الدولة بسبب سقوطه من على ظهر جواده وصارت ولاية العهد بعده إلى أخيه (مراد) وتولى منصب الصدارة بعده الوزير (خير الدين باشا).

وفي سنة ٧٦١ هـ[١٤] انتقل إلى الدار الآخرة (السلطان أورخان الغازي) وسنّه ٨١ سنة، ومدة حكمه ٣٥ سنة بعد أن أيد الدولة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة ودفن في مدينة بورصة حيث دفن ملوك آل عثمان الستة الأول.

وتولى بعده ابنه (السلطان مراد الأول) المولود سنة ٧٢٦هـ[١٥] وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة (انقرة) مقر سكنة القرمان. وذلك أن سلطان هذا الإقليم واسمه (علاء الدين) أراد انتهاز فرصة انتقال الملك من (السلطان أورخان) إلى ابنه (السلطان مراد) لإثارة حمية الأمراء المستقلين وتحريضهم على قتال العثمانيين.

١٢- يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦م.

٥- سنة ١٣٥٩م.

١٤- سنة ١٣٦٠م .

١٥- سنة ١٣٢٦م.

اما في أوربا ففتح (البكلربك لالة شاهين) مدينة آدرنة في سنة ٧٦٢هـ[١٦]سلمها قائدها الرومي بعد قتال قليل لما داخله من اليأس من استخلاصها.

ولأهمية موقعها الجغرافي ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر ، نقل اليها السلطان تخت المملكة العثمانية واستمرت عاصمة لها إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ[١٧].

ولما مات القائد (خير الدين باشا) أشهر قواد الدولة ظن متاخموها أنه لم يبق لديها من القواد من يرد كيدهم في نحرهم ، فاتحد (علاء الدين) أمير القرمان الذي سبق ذكره، مع بعض الأمراء المستقلين واستعدوا للقتال وابتدءوا المناوشات. لكن لم يمهلهم (السلطان مراد) بل أرسل إليهم (ديمور طاش باشا) فحاربهم وقهرهم في سهل قونية وأخذ (علاء الدين) أسيرا. ولولا توسط ابنته التي كان تزوجها (السلطان مراد) عقب المحاربة الأولى، لجرده من أملاكه، ولكن مراعاة لزوجته لم يأخذ منه شيئا هذه الدفعة بل أقره في أملاكه بشرط دفع الجزية وكان ذلك سنة ٧٨٨ هـ[١٨] .

ولما علم (لازار) ملك الصرب بانخذال رفيقه قرال البلغار مال بجيوشه قليلا جهة الغرب للانضمام إلى أمراء ألبانيا (الارنؤد) فلم يمكنه (السلطان مراد) من ذلك بل جد السير في طلبه حتى لحقه في سهل (قوص أوه) سنة ٧٩١ هـ[١٩] وانتشب القتال بين الجيشين بحالة يشيب من هولها الولدان، وبقيت الحرب بينهما سجالا مدة من الزمن تناثرت فيها الرؤوس وزهقت النفوس وأخيرا فر صهر (الملك لازار) المدعو (فوك برانكوفتش) ومعه عشرة آلاف فارس والتحق بجيش المسلمين فدارت الدائرة على الصربيين وجرح (لإزار) ووقع أسيرا في أيدي العثمانيين فقتلوه.

٣- سنة ١٣٦١م.

١٧- سنة ١٤٥٣م.

١٨- سنة ١٣٨٦م.

١٩- سنة ١٣٨٩م.

مقتل السلطان مراد

وبعد تمام النصر والغلبة للعثمانيين كان (السلطان مراد) يمر من بين القتلى إذ قام من بينهم جندي صربي اسمه (ميلوك كوبلوفتش) وطعن السلطان بخنجر طعنة كانت هي القاضية عليه بعد قليل، فسقط القاتل قتيلاً تحت سيوف الانكشارية، لكن لم يفدهم قتله شيئاً إذ أسلم السلطان الروح بعد ذلك بقليل.

السلطان بايزيد خان الأول

وتولى السلطان (بايزيد خان الأول) بكر أولاده وكانت ولادته سنة ٧٦١هـ[٢٠] وكان له أخ أصغر منه بقليل يدعى (يعقوب) متصفا بالشجاعة والإقدام وعلو الهمة، فخيف على المملكة منه، من أن يدعي الملك ويرتكن على أن الملك انتقل إلى (السلطان أورخان) بعد وفاة أبيه (السلطان عثمان) ولم يتول بعده ابنه البكر (علاء الدين) ولذلك قتل باتفاق أمراء الدولة وقواد جيوشها.

وهابه أمير (آيدين) فترك له أملاكه وعاش مطمئن الخاطر في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني، وكذلك ترك (أميرا منتشا) و(صاروخان) ولايتيهما واحتميا عند أمير (قسطموني).

وتنازل الأمير (علاء الدين) حاكم بلاد القرمان للسلطان عن جزء عظيم من أملاكه ليؤمنه على الباقي. ومع استمرار الحصار حول القسطنطينية ضم السلطان بلاد البلغار إلى الأملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية كباقي الولايات بعد أن قتل أميرها (سيسمان) وأسلم ابنه وعين حاكما لسمسون سنة ٧٩٦ هـ[٢١].

٢٠-سنة ١٣٦٠ م.

٢١- سنة ١٣٩٤م.

فلما علم (سجسمون) ملك المجر خبر ما حل ببلاد البلغار خشي على مملكته إذ صار متاخما في عدة نقط للدولة (العثمانية) فاستنجد بأوروبا وساعد البابا، وأعلن الحرب الدينية بين أقوام أوروبا الغربية فأجاب الدعوة دوك (بورغونيا) وأرسل ابنه (الكونت دي نيفر) ومعه ستّة آلاف محارب أغلبهم من أشراف فرانسا وفيهم كثير من أقارب ملك فرانسا نفسه، وانضم إليه حين مسيره إلى بلاد المجر أمراء (بافاريا) و(استيري) و(شواليه) القديس (حنا الأورشليمي)[٢٢] وكثير من الالمانيين، قاتلوا قتالا عنيفا في يوم ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨هـ[٢٣].

كانت نتيجتها انتصار العثمانيين على الجيوش المتألبة عليهم وأسر كثير من أشراف فرانسا منهم (الكونت دي نيفر) نفسه وقتل أغلبهم.

إغارة تيمورلنك

وسبّب إغارة (تيمور لنك) التتري الموغولي على الدولة العثمانية أن أمير بغداد والعراق المدعو (أحمد جلاير) التجأ إلى (السلطان بايزيد) حينما هاجمه الموغول في بلاده، فأرسل (تيمور لنك) إلى السلطان بطلبه، فأبى تسليمه إليه فأغار (تيمور) بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى، وافتتح مدينة (سيواس) بأرمينيا وأخذ ابن (السلطان بايزيد) المدعو (ارطغرل) أسيرا وقطع رأسه، ولذلك جمع (السلطان بايزيد) جيوشه وسار لمحاربة (تيمور الأعرج).

فتقابل الجيشان في سهل انقره واستمرت الحرب من قبل شروق الشمس إلى غروبها، وأظهر السلطان خلالها من الشجاعة ما بهر العقول وأدهش الأذهان، ولكن ضعف جيشه بفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامها إلى جيوش (تيمور) لوجود أولاد أمرائهم الأصليين في معسكر التتار ولم يبق مع السلطان إلا عشرة آلاف انكشاري وعساكر الصرب فحارب معهم طول النهار، حتى سقط أسيرًا في أيدي الموغول هو وابنه (موسى) وهرب أولاده (سليمان) و(محمد) و(عيسى) ولم يوقف لابنه الخامس (مصطفى) على أثر،

١- (بافاريا) الآن ضمن حدود المانيا. و(استيريا) هي النمسا و(شواليه) المقصود منها رئيس طائفة القديس يوحنا.

٢٣- ٢٧ سبتمبر ١٣٩٦م.

وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ هـ[٢٤]. فعامل (تيمور لنك) أسيره (بايزيد) بالحسنى وأكرم مثواه، لكنه شدد في المراقبة عليه نوعا بعد أن شرع في الهروب ثلاث مرات وضبط. ويقال أنه سجنه في قفص من حديد حتى مات في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ هـ[٢٥] و عمره ٤٤ سنة و مدة حكمه ١٣ سنة.

الفوضى بعد موت السلطان بايزيد

وبعد موت (السلطان بايزيد) تجزأت الدولة إلى عدة إمارات صغيرة، كما حصل بعد سقوط دولة آل سلجوق، لأن (تيمور لنك) أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد. واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ ولم يبق تابعا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان.

ومما زاد الخطر على هذه الدولة الإسلامية عدم اتفاق أولاد (بايزيد) على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه، فأقام (سليمان) في مدينة آدرنه، حيث ولاه الجنود سلطانا. ولأجل أن يستظهر على اخوته عقد محالفة مع ملك الروم (أيما نويل الثاني) وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الأسود، لينجده على اخوته الباقين ولزيادة الوثوق منه تزوج إحدى قريباته.

وكان (محمد بايزيد) يحارب جنود (تيمور لنك) في جبال الأناطول، واستخلص منهم مدينتي (توقات) و(أمايسيا).

أما (عيسى) فلما بلغه خبر وفاة والده جمع ما كان معه من الجند بمدينة بورصة، حيث كان مختفيا وأعلن نفسه خليفة آل عثمان بمساعدة القائد (ديمور طاش باشا).

و مما يوجب الأسف والحزن أن استنجد كل من هؤلاء الثلاثة (بتيمور لنك)، سبب هذه الفتن والمفاسد، فقبل وفودهم بكل ارتياح وشجعهم على المثابرة والثبات في الحرب، يريد

٢٤- ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢م.

٢٥- ١٠ مارس سنة ١٤٠٣م.

بذلك إضعافهم ببعضهم حتى لا تقوم للدولة بعدهم قائمة.

فسار (محمد) لمحاربة أخيه (عيسى) وهزمه في عدة مواقع وقتله في الأخيرة منها، ولم يبق له بعد ذلك منازع من اخوته في آسيا الصغرى، واستخلص أخاه (موسى) بعد ذلك من أميركرميان، وسلمه قيادة جيش جرار أرسله به إلى أوروبا لمحاربة أخيه (سليمان) فلم يقو عليه، بل انهزم أمامه وعاد مقهورا إلى آسيا.

ثم جمع جيشا آخر وعاد به إلى أوروبا وحارب أخاه (سليمان) وقتله خارج أسوار مدينة أدرنة في سنة ٨١٣ هـ[٢٦]، وبعدها أغار على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم عن الطاعة وقاتل (سجسمون) ملك المجر الذي تصدى له لرده عن بلاد الصرب، لكن داخل الطمع (الأمير موسى) فعصى أخاه (محمد) الذي أمده بالجنود لمحاربة أخيهما (سليمان) وأراد الاستقلال ببلاد الدولة بأوروبا وحاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسه، فاستنجد ملكها بـ (الأمير محمد) فأتى إليه مسرعا لمحاربته، وألزمه بعد محاربة شديدة برفع الحصار عنها ثم حالف (الأمير محمد) ملك القسطنطينية وأمير الصرب وبثوا الدسائس في جيش (موسى) حتى خانه أغلب قواده ووقع أخيرا بين يدي أخيه (محمد) فأمر بقتله سنة ٨١٦ هـ[٢٧].

انفراد السلطان
محمد جلبي الغازي بالملك

وبذلك انفرد (محمد) المولود سنة ٧٨١ هـ[٢] بما بقي من بلاد آل عثمان واشتهر في التاريخ باسم (السلطان محمد جلبي الغازي).

هذا وقد كانت مدة حكم (السلطان محمد) كلها حروبا داخلية لإرجاع الإمارات التي استقلت في مدة الفوضى التي أعقبت موت (السلطان بايزيد) في الأسر، وحافظ على محالفة ملك الروم، الذي لولا مساعدته له، لخيف على عرى الدولة من الانفصام، ورد له البلاد التي فتحها أخوه (موسى) واستمر على محافظته لعهده إلى آخر عمره.

٢٦- سنة ١٤١٠م.

٢٧-سنة ١٤١٣ميلادية.

وظهر في أيام هذا الملك شخص يسمى (بدر الدين) من العلماء المشهورين في ذاك الوقت، وكان معينا بوظيفة قاضي عسكر في جيش (موسى)، أخي (السلطان محمد)، وبعد انهزام (موسى) كما سبق ذكره ألزم بالإقامة في مدينة (أزنيك) ثم هرب منها وابتدأ في نشر آرائه واستعان في نشر مذهبه بشخص يدعى (بير قليجه مصطفى) واشتهر أمره بسرعة وكثر عدد تابعيه. ولما علم السلطان بذلك جمع الجيوش، وأرسل وزيره الأول المدعو (بايزيد باشا) لمحاربة هذه الفئة فصار إليها وقابل (مصطفى) في ضواحي أزمير فحاربه في موقع يقال له (قره بورنو) وقهره وأخذه أسيرا ثم قتله وكثيرا من أتباعه .

وبعد ذلك بذل (السلطان محمد جلبي) قصارى جهده في محو آثار هذه الفتن بإجرائه الترتيبات الداخلية الضامنة لهم حدوث شغب في المستقبل، وبينما كان السلطان مشتغلا بهذه المهام السلمية فاجأه الموت في سنة ٨٢٤ هـ[٢٨] في مدينة أدرنه فاسلم الروح وعمره ٤٣ سنة، بعد أن أوصى بالملك لابنه (مراد) الذي كان حينئذ في اماسيا.

وخوفا من حصول ما لا تحمد عقباه لو علم موت (السلطان محمد) مع وجود ابنه (مراد) في بلاد آسيا، اتفق وزيراه (إبراهيم) و(بايزيد) على إخفاء موته عن الجند حتى يحضر ابنه، فأشاعا أن السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوما واستلم مقاليد الدولة.

٢٨-سنة ١٤٢١م.

السلطان مراد خان الثاني

ولد (السلطان مراد الثاني) سنة ٨٠٦ هـ[٢٩] وتولى سنة ٨٢٤ هـ[٣٠] بعد موت أبيه، وعمره ثماني عشرة سنة، وافتتح أعماله بإبرام الصلح مع أمير القرمان، والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات حتى يتفرغ لإرجاع ما شق عصا الطاعة من ولايات آسيا.

وفي محاربة بينه وبين عمه (مصطفى) خانه بعض قواده وتركه أغلب جنوده حتى التزم الهروب إلى مدينة جاليبولي، فسلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه (مراد الثاني) فأمر بشنقه.

وتنازل أمير قسطموني عن نصف أملاكه للسلطان، وزوجه ابنته سنة ٨٢٦ هـ[٣١] إظهارا لإخلاصه وولائه، وفي السنة التالية عصى (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين، لكن قهره (حمزة بك) أخو الوزير (بايزيد باشا) وقبض عليه وأمر بخنقه.

وأعاد (مراد الثاني) إلى أملاك الدولة ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها ... وكلك استرد بلاد القرمان بعد أن قتل أميرها (محمد بك).

ووجه اهتمامه أولاً إلى بلاد ألبانيا، فأطاعه سكان يانيه، وسكان أغلب باقي البلاد، بدون كثير عناء، مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم ولا عوائدهم، وألزم (جان كستريو) أمير الجزء الشمالي من بلاد ألبانيا، أن يسلم له أولاده الأربعة رهينة على صدقه وولائه، ثم ضم أملاكه إليه بعد وفاته سنة ٨٣٥ هـ[٣٢].

وفي سنة ٨٣٧ هـ[٣٣] اعترف (فلاد) أمير الفلاخ الملقب (دره قول)، أي الشيطان، بسيادة الباب العالي عليه تخلصا من الحرب التي كان لا يشك في وخامة عاقبتها عليه، لكن لم يكن هذا الخضوع إلا ظاهريا، فإنه ما لبث أن ثار هو وأمير الصرب بنا على تحريص ملك

٢٩-سنة ١٤٠٣م.

٣٠-سنة ١٤٢١م.

٣١- سنة ١٤٢٣م.

٣٢- سنة ١٤٣١م.

٣٣- سنة ١٤٣٣م.

المجر لهما فحاربهما السلطان وقهرهما، ثم سار إلى بلاد المجر وخرب كثيرا من بلدانها وعاد منها في سنة ٨٤٢ هـ[٣٤] بسبعين ألف أسير على ما يقال.

وأغار على بلاد (ترنسلفانيا) وحاصر مدينة (هرمان ستاد)[٣٥] التابعة لملك الجر وكان حاكم هذا الإقليم (هونياد) قائد عموم جيوش المجر فأتى هذا القائد الشهير على جناح السرعة للدفاع عنها وانتصر على العثمانيين، وقتل منهم عشرين ألف نفس، وقتل قائدهم وألزم من بقي منهم بالرجوع خلف نهر الدانوب.

وأخيرا أبرم (السلطان مراد) معهم الصلح على أن يتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ ويرد إلى أمير الصرب مدائن (سمندريه) و(ألاجه حضار) وأن يهادن المجر مدة عشر سنوات وأُمضيت المعاهدة في سنة ٨٤٨هـ.

وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه (علاء الدين) فحزن عليه والده حزنا شديدا وسئم الحياة فتنازل عن الملك لابنه (محمد) البالغ من العمر أربع عشرة سنة، وسافر هو إلى ولاية آيدين للإقامة بعيدا عن هموم الدنيا وغمومها.

لكنه لم يلبث فيها، لأن عساكر الانكشارية ازدروا بملكهم الفتى (محمد الثاني) وعصوه، ونهبوا مدينة أدرنة عاصمة الدولة، فرجع إليهم (السلطان مراد الثاني) في أوائل سنة ٨٤٩ هـ[٣٦] وأخمد فتنتهم. وخوفا من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة أراد أن يشغلهم بالحرب فأغار على بلاد اليونان.

وقد توفي في يوم ٥ محرم سنة ٨٥٥ هـ[٣٧] وتولى بعده ابنه (السلطان أبو الفتح محمد الثاني) ونقلت جثته إلى مدينة بورصة وسنّه ٤٩ ومدة حكمه ٣٠ سنة.

٣٤- سنة ١٤٣٨م.

٣٥- هرمانستاد في رومانيا إلى الشمال الغربي من العاصمة بخارست.

٣٦-٧ فبراير سنة ١٤٤٥م.

٣٧-٧ فبراير سنة ١٤٥١م.

السلطان محمد الثاني

ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ[٣٨] وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية.

وبعد أن أمر بنقل جثة والده إلى مدينة بورصة، لدفنها بها، أمر بقتل أخ له رضيع اسمه (أحمد)، ولإرجاع (الأميرة مارا) الصربية إلى والدها.

ثم أخذ يستعد لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان و مدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق.

لكنه قبل التعرض لفتح القسطنطينية أراد أن يحصن بوغاز البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك بأن يقيم قلعة على شاطيء البوغاز من جهة أوروبا تكون مقابلة للحصن الذي أنشأه (السلطان بايزيد ييلدرم) ببر آسيا.

ولما بلغ ملك الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يقررها فرفض طلبه، وسعى [السلطان] في إيجاد سبب لفتح باب الحرب، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانية على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم وقتل البعض من الفريقين.

فحاصر السلطان المدينة [القسطنطينية] في سنة ٨٥٧ هـ[٣٩] من جهة البر، بجيش يبلغ المأتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية (مدفعية) وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه (أوربان) كانت تقذف كرات من الحجر[٤٠].

٣٨- ٢٠ آبريل سنة ١٤٢٩م.

٣٩- أوائل أبريل سنة ١٤٥٣م.

٤٠- وبعدها أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لاتمام الحصار برا وبحرا، فخطر بباله فكر غريب، وهو ان ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة (في البحر) لمنعه. وتم هذا الأمر المستغرب بأن مهّد طريقا على البر، اختلف في طوله والمرجح أنه فرسخان أي ستة أميال ورصّت

فعند ذلك نبّه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ / ج١ / سنة ٨٥٧ هـ[٤١] ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر وباقطاعهم أراضي كثيرة.

وفي الليلة السابقة لليوم المحدد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها للاحتفال بالنصرة، وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبّرون. حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر للهجوم، فهجم مائة وخمسون ألف جندي، وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج، وأعملوا السيف فيمن عارضهم. وقد أرّخ بعضهم هذا الفتح المبين (بلدة طيبة) سنة ٨٥٧ هـ وسميت المدينة إسلامبول أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام .

ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر، فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره، فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالا.

ثم زار كنيسة (أياصوفيا) وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين.

وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين، بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم، فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين. ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقا لهم، فاختاروا (جورج سكولاريوس)، واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيسا لطائفة الأروام، واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين، وأعطاه حرسا من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالاروام، وعين معه في ذلك مجلسا مشكلا من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس، وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنيا من ذلك أئمة الدين فقط.

فوقه ألواح من الخشب صبّت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها. وبهذا الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة في ليلة واحدة، حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم.

٤١-٢٩مايو سنة ١٤٥٣م.

ولما عاد إليها[٤٢] جهز جيشا لمحاربة أمير الفلاخ المدعو (فلاد دره قول) أي الشيطان، لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدي على تجار العثمانيين النازلين بها. فلما قرب منها أرسل إليه هذا الأمير وفدا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يصادق علي جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة ٧٩٥ هـ[٤٣] بين أمير الفلاخ إذ ذاك (السلطان بايزيد).

فقبل (السلطان محمد الثاني) هذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر ومحاربة العثمانيين. فلما علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب (خازوق).

وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة، وعثا فيها الفساد، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان يدعوه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى، فلما مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم أمر بان تسمر عمائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد .

فلما وصلت هذه الأخبار إلى (السلطان محمد) استشاط غضبا وسار على الفور بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة هذا الشقي الظلوم، فوصل في أقرب وقت إلى مدينة (بخارست) عاصمة الأمير بعد أن هزمه وفرق جيوشه لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه من المظالم والمآثم، لهروبه والتجائه إلى ملك المجر فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه (راوول) لثقته به بما أنه تربى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره، وبذا ضمت بلاد الفلاخ إلى الدولة.

ويقال إن عند وصول (السلطان محمد) إلى ضواحي (بخارست) وجد حول المدينة جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء وكان عددهم جميعا عشرين ألفا.

وبعد ذلك أخذ (البابا بيوس الثاني) يسعى في تحريض الأمم المسيحية على محاربة

٤٢- أي إلى القسطنطينية.

٤٣- سنة ١٣٩٣م.

المسلمين حربا دينية، لكن عاجله المنون قبل إتمام مشروعه. إلا أن تحريضاته هاجت (اسكندر بك) الألباني فحارب الجنود العثمانية وحصل بينهما عدة وقائع أهرق فيها كثير من الدماء وكانت الحرب فيها سجالا.

وفي سنة ٨٧١ هـ[٤٤] توفي (اسكندر بك) بعد أن حارب الدولة العثمانية خمسا وعشرين سنة بدون أن تقوى على قمعه، فكان من أشد خصوم الدولة وألد أعدائها.

وكانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا رومه وأمير نابولي ومع كل فكان النصر دائما للعثمانيين ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أخذ منهم. وفي سنة ٨٨٠ هـ[٤٥] أراد السلطان فتح بلاد البغدان فأرسل إليها جيشا بعد أن عرض دفع الجزية على أميرها المسمى (اسطفن الرابع) ولم يقبل.

وبعد محاربة عنيفة قتل فيها كثير من الجيشين المتحاربين عادت الجيوش العثمانية بدون فتح شيء من هذا الإقليم .

وبعد أن تم الصلح مع البنادقة وجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترنسلفانيا، فقهرها كينيس كونت مدينة تمسوار بالقرب من مدينة كرلسبرج في سنة ٨٨١ هـ[٤٦] ، وقتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار فقتلوا جميع الأسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم .

وفي يوم ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ توفي أبو الفتح (السلطان محمد الثاني الغازي) عن ثلاث وخمسين سنة، حكمه ٣١ سنة، تم في خلالها مقاصد أجداده، ففتح القسطنطينية وزاد عليها فتح مملكة طرابزوم الرومية والصرب والبوشناق وألبانيا (الأرنؤود) وجميع أقاليم آسيا الصغرى ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة، ودفن في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الآستانة.

وأهم أعماله المدنية ترتيب وظائف القضاء، من أكبر وظيفة وهي قضاء الروملي إلى أقل وظيفة. ووضع أول مباديء القانون المدني وقانون العقوبات فأبدل العقوبات البدنية، أي

٤٤- سنة ١٤٦٧م.

٤٥- ١٣ اكتوبر سنة ١٤٧٦م.

٤٦- سنة ١٤٧٥م.

﴿العين بالعين... والسن بالسن﴾[٤٧] وجعل عوضها الغرامات النقدية.

السلطان بايزيد خان الثاني

توفي (السلطان أبو الفتح محمد الثاني) عن ولدين، أكبرهما (بايزيد) المولود سنة ٨٥١ هـ[٤٨] و كان حاكما في باماسيا.

وثانيهما (جم) المشهور في كتب الإفرنج باسم البرنس (زيزيم)[٤٩] وكان حاكما في القرمان. فأخفى الصدر الأعظم (قرماني محمد باشا) موت (السلطان محمد) حتى يأتي بِكر أولاده (بايزيد). ولكنه لشدة ارتباطه ومودته بالأصغر أرسل إليه سرا يخبره بموت أبيه كي يحضر قبل أخيه الأكبر ويستلم مقاليد الدولة.

ولما أذيع هذا الخبر ثار الانكشارية على هذا الوزير وقتلوه وعثوا في المدينة سلبا ونهبا وأقاموا ابن (السلطان بايزيد) واسمه (كركود) نائبا عاما عن أبيه لحين حضوره و ذلك في يوم ٥ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ[٥٠].

وفي يوم ١٣ ربيع الأول وصل الرسول إلى (بايزيد) فسافر في اليوم التالي بأربعة آلاف فارس، ووصل القسطنطينية بعد مسير تسعة أيام، مع أن المسافة تبلغ ١٦٠ فرسخا تقطع عادة في نحو ١٥ يوما، فقابله أمراء الدولة وأعيانها عند بوغاز (مضيق) البوسفور، وفي أثناء اجتيازه البوغاز أحاطت به عدة قوارب ملأى بالانكشارية وطلبوا منه عزل أحد الوزراء المدعو(مصطفى باشا) وتعيين (اسحاق باشا) ضابط القسطنطينية مكانه فأجاب طلبهم.

وكذلك عند وصوله إلى السراي الملوكية وجدهم مصطفين أمامها طالبين العفو عنهم فيما وقع من قتل الوزير ونهب المدينة وأن ينعم عليهم بمبلغ سرورا بتعيينه فأجابهم إلى جميع

٤٧- سورة المائدة: ٤٥ .

٤٨- سنة ١٤٤٧م.

٤٩ - zizim.

٥٠- ٤ مايو سنة ١٤٨١م.

مطالبهم. وصارت هذه سنّة لكل من تولى بعده إلى أن أبطلها (السلطان عبد الحميد خان الأول) سنة ١١٨٧هـ[٥١].

أما الرسول الذي كان أرسله الوزير (محمد) إلى الأمير (جم)، فقبض عليه (سنان باشا) حاكم (الأناطول) وقتله حتى لا يصل خبر موت (السلطان محمد) إليه.

وكانت أول حروبه داخلية وذلك أن أخاه (جما) لما بلغه خبر موت أبيه سار على الفور مع من حاز به ولاذ به قاصدا مدينة بورصة، فدخلها عنوة بعد ان هزم ألفي انكشاري.

ثم أرسل إلى أخيه يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما فيختص (جم) بولايات آسيا و(بايزيد) باوروبا، فلم يقبل (بايزيد) بل أتى إليه وقهره بالقرب من مدينة (يكي شهر) في يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٨٨٦ هـ[٥٢] وتبعه حتى أوصله إلى تخوم البلاد التابعة لمصر.

وفي عودته إلى عاصمته طلب منه الانكشارية أن يبيح لهم نهب مدينة بورصة مجازاة لها على قبولها الأمير (جما) فلم يوافقهم على ذلك، وخوفا من حصول شغب منهم دفع إلى كل نفر منهم قرشين. فأقام (جم) هذه السنة بالقاهرة ضيفا عند (السلطان قايدباي)[٥٣] ثم عاد في السنة الثانية إلى حلب، و منها راسل (قاسم بك) آخر ذرية أمراء القرمان ووعده أنه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان يرد له بلاد أجداده، فاغتر(قاسم بك) بهذه الوعود وجمع أحزابه وسار مع (الأمير جم) لمحاصرة مدينة قونيه عاصمة بلاد القرمان، فصدهم عنها القائد العثماني (كدك أحمد باشا) فاتح مدينتي كافا واوترنت وألزم الأمير(جما) بالفرار.

ثم حاول هذا الأمير الصلح مع أخيه بشرط إقطاعه بعض الولايات. ولما رفض السلطان هذا الطلب الذي لا يكون وراءه إلا انقسام الدولة، أرسل (الأمير جما) رسولا من طرفه إلى رئيس رهبنة القديس (حنا الأورشليمي) برودوس[٥٤] يطلب منه مساعدته على أغراضه، فقبلوه

٥١- سنة ١٧٧٤م.

٥٢-٢٠ يوليو سنة ١٤٨١م.

٥٣- ويكتبها بعض (قايتباي).

٥٤- رودوس rodhos: جزيرة صغيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط عند مدخل بحر ايجه.

عندهم بالجزيرة. ووصل إليها في ٦ جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ[٥٥] وقابله أهلها بكل تجلة واحترام.

وبعد قليل وصلت إلى الجزيرة وفود من (السلطان بايزيد) لمخابرة رئيس الرهبنة على إبقاء أخيه (جما) عندهم تحت الحفظ، وفي مقابلة ذلك يتعهد لهم السلطان بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة مدة حياته ويدفع مبلغا سنويا للرهبنة المذكورة قدره ٤٥ ألف دوكا، فقبل لرئيسهم ذلك وأوفوا بوعدهم ولم يقبلوا تسليمه إلى ملك المجر أو إمبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستعملاه آلة في إضعاف الدولة العثمانية، بل أرسله رئيس الرهبنة إلى فرنسا، ووضع تحت الحفظ أولا في مدينة نيس ثم في شمبري، وبقي ينقل من بلدة لأخرى مدة سبع سنوات. وفي سنة ٨٩٣ هـ[٥٦] سلمه رئيس الرهبنة إلى (البابا أنوسان الثامن)، وهو خابر (السلطان بايزيد) طالبا أن يحفظه عنده وتدفع إليه الدولة ما كانت تدفعه إلى رهبنة رودس فقبلت، ثم مات هذا البابا وخلفه (إسكندر بورجيا)[٥٧] الشهير.

وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرانسا مدينة رومة وطلب من البابا أن يسلمه (الأمير جما) العثماني فسلمه إليه. ويقال أنه دس له السم قبل تسليمه إليه، وما فتئ هذا الأمير مصاحبا لجيوش فرانسا حتى توفي في يوم ١٨ جمادى الأول سنة ٩٠٠هـ[٥٨] في مدينة نابولي، ودفن في بلدة (جاييت) بإيطاليا، ثم نقلت جثته بعد ذلك بمدة إلى البلاد العثمانية ودفن في مدينة بورصة في قبور أجداده. وتوفي عن ٣٦سنة قضى منها ١٣ في هذه الحالة الشبيهة بالأسر خارجا عن بلاده.

وفي عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة مع مملكة الروس، وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة العثمانية في سنة ٨٩٧هـ[٥٩] حيث وصل إلى القسطنطينية أول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان. وبعد ذلك بأربع سنوات أتى إليها سفير آخر واستحصل من

٥٥-٢٣ يوليو سنة ١٤٨٢م.

٥٦- سنة ١٤٨٩م.

٥٧-borgia

٥٨-١٤ فبراير سنة ١٤٩٥م.

٥٩- ١٤٩٢م.

الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس.

ولقد تكدر صفاء حياة الملك في سني حكمه الأخيرة بعصيان أولاده عليه وإضرامهم نار الحروب الداخلية التي لولا ما وقع في قلوب أعدائها من الرعب لكانت هذه الحروب العائلية فرصة عظيمة لهم. وذلك أن (السلطان بايزيد الثاني) كان له ثمانية أولاد ذكور، توفي منهم خمسة في صغرهم، وبقي ثلاثة، وهم: (كركود) و(أحمد) و(سليم).

وكان أولهم مشتغلا بالعلوم و الآداب ومجالسة العلماء ولذا كان يمقته الجيش لعدم ميله للحرب، والثاني كان محبوبا لدى الأعيان والأمراء وكان (على باشا) أكبر الوزراء مخلصا له، وكان ثالثهم وهو (سليم) محبا للحرب ومحبوبا لدى الجند عموما والانكشارية خصوصا.

ولاختلافهم في المشارب والآراء خشي والدهم وقوع الشقاق بينهم، ففرق بينهم وعين (كركود) واليا على إحدى الولايات البعيدة و(أحمد) على أماسيا و(سليما) على طرابزون. وعين أيضا (سليمان) ابن ابنه (سليم) واليا على (كافا) من بلاد القرم فلم يرض (سليم) بهذا التعيين بل ترك مقر وظيفته وسافر إلى كافا بالقرم وأرسل إلى أبيه يطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوروبا، فلم يقبل السلطان بل أصر على بقائه بطرابزون، فعصى (سليم) والده جهارا، وسار بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملي وأرسل والده جيشا لإرهابه. ولما وجد من ابنه التصميم على المحاربة قبل تعيينه بأوروبا حقنا للدماء وعينه واليا على مدينتي (سمندرية) و(ودين) سنة ٩١٧هـ[٦٠].

ولما وصل إلى (كركود) خبر نجاح أخيه (سليم) في مقاومته انتقل إلى ولاية صاروخان، واستلم إدارتها بدون أمر أبيه، ليكون قريبا من القسطنطينية عند الحاجة.

ثم سار(سليم) إلى (أدرنه) وأعلن نفسه سلطانا عليها، فأرسل والده إليه من هزمه وألجأه إلى الفرار ببلاد القرم. وأرسل جيشا آخر لمحاربة (كركود) بآسيا فهزمه أيضا.

لكن التزم (السلطان بايزيد) بالعفو عن ابنه (سليم) بناء على إلحاح الانكشارية لتعلقهم به وإعادته إلى ولاية سمندرية.

وفي أثناء توجه (سليم) إليها قابله الانكشارية وأتوا به إلى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السلطان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور، فقبل واستقال في

٦٠- سنة ١٥١١م.

يوم ٨ صفر سنة ٩١٨هـ[٦١] وبعد ذلك بعشرين يوما سافر للإقامة ببلدة ديموتيقا فتوفي في الطريق يوم ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ[٦٢] عن ٦٧سنة، ويدعى بعض المؤرخين أن ولده دس إليه السم خوفا من رجوعه إلى منصة الملك. . ومدة حكمه ٣٢سنة .كما فعل (السلطان مراد الثاني) الذي سبق ذكره.

السلطان سليم الأول[٦٣]

لما كان تعيينه بمساعي الانكشارية يقتضي توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد، أعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا، ثم عين ابنه (سليمان) حاكما للقسطنطينية، وسافر بجيوشه إلى بلاد آسيا لمحاربة اخوته وأولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع في الملك، فاقتفى أثر أخيه (أحمد) إلى أنقرة، ولم يتمكن من القبض عليه، لوجود علاقات بينه وبين الوزير (مصطفى باشا) الذي كان يخبره بمقاصد السلطان. لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد إخوته وأمر بقتلهم.

وبعدها توجه بكل سرعة إلى صاروخان مقر أخيه كركود ففرمنه إلى الجبال وبعد البحث عليه عدة أسابيع قبض عليه وقتل.

أما (أحمد) فجمع جيشا من محازبيه وقاتل العساكر العثمانية فانهزم وقتل بالقرب من مدينة (يكي شهر) في يوم ١٧صفر سنة ٩١٩هـ[٦٤]. ولما اطمأن خاطره من جهة داخليته عاد إلى مدينة ادرنة حيث كان بانتظار سفراء من البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر، فابرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس التي كانت

٦١-٢٥ أبريل سنة ١٥١٢م.

٦٢-٢٦ مايو سنة ١٥١٢م.

٦٣- الملقب بـ[ياوز] اي القاطع.

٦٤-٢٤ أبريل سنة ١٥١٣م.

أخذت في النمو والارتقاء في عصر ملكها (شاه إسماعيل) الشيعي، فإنه فتح ولاية شيروان وجعل مركزه مدينة تبريز سنة ٩١٤هـ[٦٥] وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة ٩١٤هـ[٦٦] وأرسل أحد قواده فاحتل مدينة بغداد. وفي سنة ٩١٦هـ[٦٧] ضم إلى أملاكه بلاد فارستان وآذربيجان وبذلك امتدت مملكته من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر امودايا.

[قتل الشيعة]

ولإيجاد سبب للحرب مع ايران أمر (السلطان سليم) بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرية، ثم أمر بقتلهم جميعا. ويقال أن عددهم كان يبلغ نحو الأربعين ألفا وهذه المذبحة كالمذبحة التي حصلت بباريس في ٥ / ج١ / سنة ٩٨٠هـ[٦٨] المشهورة في التواريخ بمذبحه سان برتليمي.

وبعد ذلك أعلن (السلطان سليم) (الشاه إسماعيل) بالحرب[٦٩] وسافر بجيوشه من مدينة أدرنه في ٢٢ محرم سنة ٩٢٠هـ[٧٠]. وفي أثناء مسيره تبادل مع الشاه رسائل مفعمة بالسباب.

وسار الجيش العثماني تحت قيادة (السلطان سليم) نفسه كما جرت به العادة قاصدا مدينة تبريز عاصمة العجم، وكانت الجيوش الفارسية تتقهقر أمامه خدعة منهم لينهك التعب الجيوش العثمانية فينقضوا عليهم. واستمروا في تقهقرهم إلى أرباض تبريز فوقع القتال بين الجيشين في وادي (جان دران)[٧١] في ٢ رجب سنة ٩٢٠ هـ[٧٢] فانتصرت الجيوش العثمانية

٦٥- سنة ١٥٠٨م.

٦٦- سنة ١٥٠٨م.

٦٧- سنة ١٥١٠م.

٦٨-٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م.

٦٩- والمقصود أنه أعلن (السلطان سليم) الحرب على (الشاه اسماعيل).

٧٠-١٩ مارس سنة ١٥١٤م.

٧١- الصحيح وادي (جالدران).

٧٢-٢٤ أغسطس سنة ١٥١٤م.

نصرا مبينا لمساعدة الطويجية لها، وفر الشاه بما بقي من جيوشه[٧٣] ووقع كثير من قواده في الأسر وأسرت أيضا إحدى زوجاته ولم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كاتبي يده انتقاما من الشاه.

وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان في يوم ١٤ رجب سنة ٩٢٠ هـ[٧٤] واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية. وكذلك أرسل إليها أربعين شخصا من أمهر صناع هذه المدينة.

وعندما أقبل الربيع بنضارته رجع السلطان إلى بلاد العجم ففتح قلعة كوماش الشهيرة، وإمارة ذي القدر سنة ٩٢١هـ[٧٥]، ثم رجع إلى القسطنطينية تاركا قوّاده لإتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية.

ولما وصل إليها[٧٦] أمر بقتل عدد عظيم من ضباط الانكشارية الذين كانوا سبب الامتناع عن التقدم في بلاد فارس، كما سبق الذكر، خشية من امتداد الفساد وعدم الاطاعة في الجيوش، وأمر بقتل قاضي عسكر هذه الفئة واسمه (جعفر جلبي) لأنه كان من أكبر المحرّكين لهذا الامتناع.

وبعد عودة السلطان إلى القسطنطينية فتحت الجيوش العثمانية مدائن ماردين واورفه والرقة والموصل وبذا تم فتح إقليم ديار بكر[٧٧].

ولم ينته (السلطان سليم) من محاربة الشيعة وفتح بلاد ديار بكر والموصل حتى أخذ في الاستعداد لفتح سلطنة مصر وسلطانها (قانصوه الغوري)، وكان الغوري استعد أيضا لمحاربته،

٧٣- من أهم أسباب انكسار جيش (الشاه اسماعيل) هو عدم وجود جيش نظامي للدولة وعدم تعرّفهم على نظام المدفعية الذي كان سبب انتصار العثمانيين في هذه المعركة، ومع ذلك فقد قام (الشاه اسماعيل) مع عدّة من الخيالة بعملية انتحارية باقتحام صفوف العثمانيين وإبادة المدافع وإتلاف الذخيرة والعودة.

٧٤-٤ سبتمبر سنة ١٥١٤م.

٧٥- سنة ١٥١٥م.

٧٦- أي إلى القسطنطينية.

٧٧-وفي بعض التواريخ انه قتل من الشيعة في هذه البلاد قتلا عاما حتى وصل عدد القتلى إلى ستمائة ألف. (محمد) .

فتقابل الجيشان وهُزِمَ (الغوري) وساعدت المدافع العثمانيين على النصر وقُتِلَ (الغوري) في أثناء انهزام الجيش وسنّه ثمانون سنة. وكان ذلك في يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ[٧٨].

وبعد هذه الموقعة احتل (السلطان سليم) بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق، وعين بها ولاة من طرفه.

وفي يوم ٨ محرم سنة ٩٢٣هـ دخل العثمانيون مدينة القاهرة رغما عن مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل لآخر، حتى قتل منهم ومن أهالي البلد ما يبلغ خمسين ألف نسمة .

ومما جعل لفتح وادي النيل أهمية تاريخية عظمى أن (محمد المتوكل على الله) آخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة (هولاكو خان التتري) سنة ٦٥٦هـ[٧٩] وكانت له الخلافة بمصر اسماً، تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى (السلطان سليم العثماني) وسلّمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة. وسلمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين (صلى الله عليه وآله وسلم) اسماً.

وتمكنت الدولة العثمانية من إبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مأتي سنة، ثم أهملت ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الأمور المخلّة بالنظام، فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التي كانت لها على مصر، وأخذ البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية في الديار المصرية، فآل الأمر والنهي لهم في الحكومة وصارت الدولة صورية غير حقيقية وكان من سبب ذلك إكثارهم من شراء المماليك.

ولو كانت الدولة تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ما وضعها (السلطان سليم) ولكن غفلت عن هذا الأمر كما غفلت عن أمور كثيرة، ومن ذلك لحق الأهالي الذل والإهانة وهاجر كثير منهم إلى الديار الشامية والحجازية وغيرهما، وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التي عليها مدار الخصب. ونتج من ذلك ومن خوف الدولة من تمكن (الباشا) في الحكومة أن تغلبت

٧٨-٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م.

٧٩-سنة ١٠٩١م.

البكوات وصارت كلمتهم هي النافذة وانفردوا بالتصرف.

وفي أوائل شهر سبتمبر (ايلول) سنة ٩٢٣هـ[٨٠] سافر (السلطان سليم) من القاهرة عائداً إلى القسطنطينية، التي صارت من ذلك الوقت مقر الخلافة الاسلامية العظمى، وفي أثناء مروره بصحراء العريش التفت لوزيره الأكبر (يونس باشا) . الذي كان فتح مصر على غير رأيه . و قال له ما معناه: أنه قد أتم فتحها خلافا لرأيه، فجاوبه (يونس باشا) بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه فلا يؤمن ولاؤه للدولة، فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفة لوم وأمر بقتله في الحال فقتل.

وفي أثناء إقامة السلطان بمدينة أدرنه وصل إليه سفير من قبل مملكة إسبانيا ليخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الشريف، الذي كان قبلا تابعا لسلطنة مصر وتبعها في دخولها تحت ظل الدولة في مقابلة دفع المبلغ الذي كان يدفع سنويا للمماليك، فأحسن السلطان مقابلته وصرح بقبوله ذلك إذا أرسل ملكه رسولا آخر مخولا له حق ابرام معاهدة مع الباب العالي.

وكان في هذه المدة مشتغلا بتجهيز عمارة بحرية لمعاودة الكرة على جزيرة رودس بحرا، وكان يستعد أيضا لمحاربة شاه العجم ثانيا، فجمع خمسة عشر ألف فارس بمدينة قيصرية وضم إليهم ثلاثين ألف جندي من المشاة تحت قيادة (فرحات باشا) بيلر بك الأناطول، وأرسل إليهم عددا عظيما من المدافع والذخائر، لكن لم يمهله المنون بل عاجله في رحلته من القسطنطينية إلى أدرنة، فتوفي في يوم ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ[٨١] وأخفى طبيبه الخصوصي خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه إلا للوزراء، فاجتمع كل من (بيرمحمدباشا) و(أحمدباشا) و(مصطفىباشا) وقرروا إخفاء هذا الأمر حتى يحضر ولده (سليمان) من إقليم صاروخان، خوفا من أن تثور الانكشارية كما هي عادتهم.

فكانت مدة حكمه كمدة حكم جده (محمد الفاتح). وكان ميالا لسفك الدماء، فقتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية. وكان كل وزير مهددا بالقتل لأقل هفوة، حتى صار يدعى

٨٠- سنة ١٥١٧م.

٨١- ٢٢أيلول سنة ١٥٢٠م.

على من يرام موته بأن يصبح وزيرا له.

السلطان سليمان خان الأول

ولد هذا الملك غرة شعبان سنة ٩٠٠هـ[٨٢] وهو عاشر ملوك آل عثمان. وبمجرد وصول خبر موت أبيه قام قاصدا القسطنطينية ودخلها في يوم ١٦ شوال سنة ٩٢٦هـ[٨٣] وكان في انتظاره على إفريز السراي جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل ملك، وبعد ظهر ذلك اليوم حضر (بيرمحمدباشا) من أدرنه وأخبر عن وصول جثة (السلطان سليم) في اليوم التالي.

وفي صبيحة ١٧ شوال جرت رسوم المقالات السلطانية، فوفد الأمراء و الوزراء والأعيان يعزون السلطان بموت والده ويهنئونه بالخلافة في آن واحد وهو يقابلهم بملابس الحداد. وعند الظهر وصل إليه خبر قدوم الجثة فخرج لمقابلة النعش خارج الدينة وسار في الجنازة حتى واروها التراب على أحد مرتفعات المدينة، وأمر ببناء جامع شاهق وهو . جامع سليمية . ومدرسة في المحل الذي دفن فيه.

وكانت باكورة أعماله بعد توزيع النقود على الانكشارية تعيين مربيه (قاسم باشا) مستشارا خاصا، وإبلاغ توليته على عرش الخلافة العظمى إلى كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة بخطابات مفعمة بالنصائح والآيات القرآنية المبينة فضل العدل والقسط في الأحكام ووخامة عاقبة الظلم، وكان يستهل خطاباته بالآية الشريفة: ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾[٨٤].

ثم أخذ السلطان في الاستعداد برا وبحرا لفتح جزيرة رودس التي لم يتمكن (السلطان محمد الفاتح) من فتحها لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر، ولكي لا

٨٢- ٢٧ أبريل سنة ١٤٩٥م.

٨٣- ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٠م.

٨٤- سورة النمل: ٣٠.

يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط بلاده تلجأ إليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت الحرب، وأراد الإسراع في تتميم هذا العمل العظيم الذي عجز أسلافه عنه لوجود ملوك أوروبا مشتغلين في جهات أخرى لا يمكنهم مساعدة الرهبنة المحتلة لها. فكان ملك فرانسا (فرانسوا الأول) وشارل الخامس الشهير بـ (شار لكان) ملك إسبانيا وألمانيا معا مشتغلين بمحاربة بعضهما، والبابا (لاون) العاشر مشتغلا مجادلة ومقاومة الراهب الألماني (لوثر) مؤسس مذهب البروتستانت، وبلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب عدم اتفاق أمرائها وأعيانها وصغر سن ملكها (لويس الثاني)، كل هذه الأسباب حملت السلطان على انتهاز هذه الفرصة لفتح هذا الحصن المنيع لكن اقتضت شفقته أن يرسل إلى رئيس الرهبنة قبل الشروع في الحرب كتابا يعرض عليه إخلاء الجزيرة والانسحاب منها بكل من معه من المسيحيين الذين يؤثرون المهاجرة على البقاء متعهدا له بعدم التعرض لأنفسهم ولأموالهم، ولما لم يقبل رئيسهم هذا الاقتراح أمر السلطان العمارة البحرية فأقلعت قاصده رودس، وسافر هو من طريق البر إلى خليج (مرمورا) المقابل للجزيرة من جهة آسيا، ولما أعيت الحيل رئيس هذه الرهبنة واسمه (فيلي دي ليل أدام) الفرنساوي الأصل ونفدت مؤونته وذخائره أرسل اثنين من رهبانه إلى السلطان في ٢ صفر سنة ٩٢٩هـ[٨٥] يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة في مدة اثني عشر يوما بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها حتى لا يحصل للمحصورين ضرر عند خروجهم فقبل السلطان ذلك، لكن في الخامس منه دخل المدينة فريق من الانكشاري رغم أوامر السلطان واحتلوا المدينة، وارتكبوا كافة أنواع القبائح حسب عادتهم، فغضب السلطان وأمر بمراعاة شروط التسليم وعاقب المفسدين، فأعيد الأمن وسادت السكينة. وفي اليوم التالي قابل السلطان رئيس الرهبنة وأنعم عليه بخلعة سنية. وفي يوم ١٣ صفر سنة ٩٢٩هـ[٨٦] سافرت هذه الفئة المحضة نفسها للدفاع عن الدين المسيحي ومحاربة المسلمين قاصدة جزيرة مالطة التي تنازل لها عنها (الملك شاركان) واستمرت هذه الرهبنة نازلة بها حتى احتلها (بونابرت) عند قدومه مصر سنة

٨٥-٢١ ديسمبر سنة ١٥٢٢م.

٨٦-أول يناير سنة ١٥٢٣م.

١٢١٣هـ[٨٧].

وعين الخليفة (أحمد باشا) واليا على مصر لوفاة (خير بك) في الوقت الذي كان فيه السلطان محاصرا لجزيرة (رودس)، ولما وصل (أحمد باشا) إلى القاهرة أخذ في استمالة من بقي من أمراء المماليك إليه بإقطاعهم الأراضي وإغضائه عما يرتكبونه من أنواع الآثام والمظالم .

ولما تحقق من إخلاصهم أعلن العصيان مرة واحدة واستولى على القلعة بعد قتل حاميتها، فأرسل إليه السلطان أمرا بعزله من ولاية مصر وبالعود إلى الآستانة وتسليم الولاية لخلفه (قره موسى)، فقتل الرسول و(قره موسى) الوالي الجديد. ثم خانه أحد وزرائه واسمه (محمد بك) وأراد القبض عليه فهرب واختفى عند عرب البادية، فاقتفى أثره حتى ضبطه وقتله وأرسل رأسه إلى الآستانة، فعين بدله (قاسم باشا) الوالي الأسبق وكوفيء (محمد بك) بتقليده وظيفة (دفتر دار الولاية) سنة ١٢١٤ هـ[٨٨].

هذا وفي ٢٥ مارس سنة ٩٣١هـ[٨٩] تذمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة (أدرنة) التي كان توجه إليها للإقامة بها في فصل الشتاء ونهبوا سراي (إبراهيم باشا)، الصدر الأعظم الذي كان إذ ذاك بمصر، ومحل الجمرك وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان وحارة اليهود، ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لأمتد العصيان، لكنه أسكتهم عن السلب والنهب بتوزيع ألف (دوكا) عليهم، ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان، وقتل بعضهم.

وقابل (السلطان سليمان) السفير الفرانساوي في ٦ ديسمبر سنة ٩٣١هـ[٩٠] باحتفال زائد وأجزل له العطايا، وبعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه وعده السلطان بمحاربة المجر، لكن لم تمض بينهما معاهدة بل اكتفى السلطان بأن كتب لملك فرانسا بتاريخ أوائل ربيع الثاني سنة ٩٣٢هـ جوابا يظهر له فيه استعداده لمساعدته وهذه صورته نقلا عن ترجمة الجزء الأول من تاريخ (جودت باشا):

٨٧-سنة ١٧٩٨م.

٨٨- سنة ١٥٢٤م.

٨٩- سنة ١٥٢٥م.

٩٠- سنة ١٥٢٥م.

الله العلي المعطي المغني المعين

(بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى الكثيرة البركات، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وجميع أولياء الله، أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود، والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية (ذي القدرية) و(ديار بكر) و(كردستان) و(أذربيجان) و(العجم) و(الشام) و(حلب) و(مصر) و(مكة والمدينة والقدس) وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضا، التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة، أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر، أنا السلطان (سليمان خان) بن السلطان (سليم خان) بن السلطان (بايزيد خان) إلى (فرنسيس) ملك ولاية فرنسا: وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم (فرانقبان النشيط) مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهيا وأعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوما، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فان آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو ونحن أيضا سالكون على طريقتهم، وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلا ونهارا مسروجة، وسيوفنا مسلولة، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته، وأما باقي الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا)

تحريرا في أوائل شهر آخر الربيعيين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة.

بمقام دار السلطنة

القسطنطينية المحروسة المحمية

فتح بلاد المجر وعاصمتها

وحارب الخليفة بلاد المجر، فأخذوا في التقهقر تتبعهم العساكر المظفرة حتى قتل اغلب الفرسان المجرية وقتل ملكهم ولم يعثر على جثته.

فكانت هذه الواقعة سبب ضياع استقلال بلاد المجر بأسرها لعدم وجود جيش آخر يقوم العثمانيين في مسيرهم، ولحصول الفوضى في البلاد بسبب موت سلطانهم، ولذلك أرسل أهالي مدينة (بود) عاصمة المجر[٩١] مفاتيح المدينة إلى السلطان فاستلمها، وانتشرت الجنود في جميع أنحاء المدينة وفي جميع أرجاء بلاد المجر ناهبين قاتلين مرتكبين كل الفظائع التي ترتكبها الجيوش غير المنتظمة عقب الانتصار.

وبعد دخول السلطان إلى مدينة (بود) جمع أعيان القوم وأمراءهم ووعدهم بأن يعين (جان زابولي) أمير(ترانسلفانيا) ملكا عليهم ثم غادر إلى مقر خلافته مستصحبا معه كثيرا من نفائس البلاد وأهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن (متياس كورفن).

وكذلك فعل (نابليون) حينما دخل مصر في أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة فانه أخذ كثيرا من كتب الفقه وأحكام الشريعة الغراء.

ثم أغار ملك النمسا على المجر وفتح مدينة (بود) فسار الخليفة الأعظم إلى مدينة (بود) عاصمة المجر، فوصلها في ٣ سبتمبر وابتدأ الحصار لكن لم يلبث (فرديناند) ملك النمسا أن فر هاربا من (بود) قاصدا مدينة (ويانه)[٩٢] عاصمة النمسا، وفي الثامن منه طلب قائد الحامية النمساوية بمدينة (بود) تسليم المدينة وقلاعها إذا وعدهم السلطان بالسماح لهم بالخروج بدون تعرض لحياتهم، ولما أجابهم السلطان لذلك أخلوا المدينة، وفي حال خروجهم منها انقض عليهم الانكشارية وقتلوا أغلبهم غير طائعين لأوامر رؤسائهم مهددين من رغب في منعهم من القواد والضباط.

٩١- بودابست عاصمة المجر (هنغاريا) وهي في الاصل مؤلفة من مدينتين (بود) و(بست).

٩٢- (فينّا) أو (ويانة) كما يكتبها الاتراك ، لانهم يلفظون حرف الواو قريبا من حرف الفاء. وهي عاصمة النمسا.

ولنذكر هنا حادثة شنيعة وهي قتل السلطان لولده الأكبر (مصطفى) بناء على دسيسة إحدى زوجاته المسماة في كتب الإفرنج (روكسلان) أما في كتب الترك فاسمها (خورم)، ذلك حتى يتولى بعده ابنها (سليم)، ولما لها من الثقة بالصدر الأعظم (رستم باشا) . إذ كان تعيينه بمساعيها لدى السلطان بعد موت (إياس باشا) وما زالت تساعده حتى زوجه السلطان ابنته منه . فكاشفته بمرغوبها، وهو تمهيد الطريق لتولي ابنها (سليم) فانتهز هذا الوزير فرصة انتشاب الحرب بين الدولة ومملكة العجم في سنة ٩٦٠هـ[٩٣] ووجود (مصطفى) ضمن قواد الجيش، وكتب إلى أبيه بأن ولده يحرض الانكشارية على عزله وتنصيبه كما فعل (السلطان سليم الأول) مع أبيه (السلطان بايزيد الثاني)، فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان، وكانت والدة (سليم) قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه، قام في الحال قاصدا بلاد العجم متظاهرا بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش، ولما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه في يوم ١٢ شوال سنة ٩٦٠ هـ[٩٤]، وبمجرد وصوله إلى الداخل خنقه بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الأوامر، فقتل شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه.

ثم نقلت جثته إلى مدينة (بورصة) ودفنت مع جثث أجداده. ولم تكتف هذه المرأة بقتل (مصطفى سلطان) بل أرسلت إلى مدينة بورصة من قتل ابنه الرضيع. وقال في ذلك بعض الشعراء:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي جلدا وأنت والد سوء تأكل الولدا

أما الإنكشارية فثاروا وطلبوا من السلطان قتل الوزير (رستم باشا) المدبر لهذه المكيدة حبا في حفظ منصبه، فعزله السلطان تسكينا لخاطرهم وولى مكانه الوزير (أحمد باشا). لكن لم يهدأ بال زوجة السلطان حتى أغرت زوجها على قتل هذا الوزير وإرجاع (رستم باشا) مكافأة له على تنفيذ سيئ أغراضها، فقتله السلطان.

وكان للسلطان (سليمان) ابن آخر اسمه (جهانكير) حزن حزنا شديدا على قتل أخيه مصطفى حتى توفي شهيد المحبة الأخوية بعد موت أخيه بقليل، واختلف في موته أنه قتل نفسه أمام والده بعد ان بكتّه على قتل أخيه، وقيل غير ذلك.

٩٣- سنة ١٥٥٣م.

٩٤-٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣م.

ولم تكن هذه الحادثة خاتمة الفظائع، بل أعقبها بقتل ابنه الثاني (بايزيد) وأولاده الخمسة، وذلك أن مربّي (بايزيد) المدعو (لاله مصطفى) عين ناظر خاصة (سليم سلطان) ولكون هذا الأمير كان يخشى مزاحمة أخيه (بايزيد) له في الملك بعد موت أبيهما كاشف (لاله مصطفى) بأنه يريد إيغار صدر على (بايزيد) ليقتله ويكون هو (سليم) الوارث الوحيد لملك آل عثمان، فأخذ (مصطفى) يبحث عن الطريقة الموصلة حتى اغرى السلطان عليه فأرسل السلطان رسلا إلى (بايزيد) وأولاده فقتلوهم جميعا، وهم (بايزيد) وأولاده الأربعة (أورخان) و(محمود) و(عبد الله) و(عثمان) في مدينة قزوين ببلاد العجم في ١٥ محرم ٩٦٩هـ[٩٥] ونقلت جثثهم إلى مدينة (سيواس) حيث واروها الثرى. وكان لـ (بايزيد) ابن صغير في مدينة بورصة فخنق أيضا ودفن في جانب والده واخوته. وفي أوائل شهر سبتمبر اشتد مرض السلطان وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ[٩٦] عن أربع وسبعين سنة قمرية، وكانت مدة ملكه ثمانية وأربعين سنة.

٩٥- ٢٥ سبتمبر سنة ١٥٦١م.

٩٦- ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦م.

السلطان سليم خان الثاني

ولد (السلطان سليم الثاني) في ٦رجب سنة ٩٣٠هـ[٩٧] وهو ابن (روكسلان) الروسية، وتولى الملك بعد موت أبيه ووصل إلى القسطنطينية في ٩ربيع أول سنة ٩٧٤هـ[٩٨]، وبعد أن مكث بها يومين سار على عجل إلى مدينة (سكدوار) للاحتفال بإرجاع جثة والده إلى القسطنطينية، فقابله خارج المدينة سفراء فرنسا والبندقية القادمين لتهنئة بالملك.

ولما وصل مدينة صوفيا في ٦ أكتوبر أرسل الرسل إلى كافة الممالك الخارجية والولايات الداخلية يخبرهم بموت أبيه وتوليته على عرش آل عثمان، ومنها قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى أتى الوزير (محمد باشا صقللي) بجثة والده، وذلك أن الوزير (محمد باشا) لم يعلن بوفاة (السلطان سليمان) إلا في أثناء عودته من مدينة (سكدوار) إلى بلغراد، بل أوهم الجند أن السلطان مريض ولا يمكن لأحد مقابلته ولما أعلن موته إلى الجنود بعد موته بنحو خمسين يوما لبست الجيوش عليه الحداد وساروا إلى بلغراد حيث كان (سليم الثاني) في انتظارهم، فطلبت الجنود منه أن يوزع عليهم العطايا المعتادة، فأبى ثم أذعن لطلباتهم لإظهارهم العصيان والتمرد وعدم إطاعتهم أوامر ضباطهم وامتهانهم لهم بحضور السلطان، ثم انه أعطى امتيازات كثيرة للأجانب وقد كثرت المنكرات في عهدة خصوصا شرب الخمر.

وأيّد (السلطان سليم) الامتيازات القنصلية التي حصلت بين والده (السلطان سليمان) وملك فرنسا وزاد عليها امتيازات ومعاهدات أخرى فسحت المجال أمام القناصل الفرنسية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، وبذلك صارت فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة، وأرسلت تحت ظل هذه المعاهدات عدة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة الموجودة بها مسيحيون، خصوصا في بلاد الشام، لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا. وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الإجراءات الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين،

٩٧-١٠ مايو سنة ١٥٣٣م.

٩٨-٢٤ ديسمبر سنة ١٥٦٦م.

واتخاذها لها سبيلا لامتداد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين، وأهم نتائج هذا التدخل وأضره مآلا وأوخمه عاقبة استعمال هذه الإرساليات الدينية في حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي، حتى إذا ضعفت الدولة أمكن هذه الشعوب الاستقلال بمساعدة الدول المسيحية أو الانضمام إلى إحدى هذه الدول، كما شوهد ذلك في هذا القرن الأخير.

واقعة ليبانت البحرية

وفي هذه الأثناء غزت المراكب العثمانية جزيرة (كريد) و(ظنته) وغيرها بدون أن تفتحها، واحتلت مدائن (دلسنيو) و(انتيباري) على البحر (الأدرياتيكي) ولما رأت البندقية تغلب العثمانيين عليها وفتح كثير من بلادها استعانت باسبانيا والبابا، وتم بينهم الاتفاق على محاربة الدولة بحرا، خوفا من امتداد سلطتها على بلاد إيطاليا، فجمعوا مراكبهم وجعلوا (دون جوان) ابن (شارلكان) . سفاحا من إحدى خليلاته . أميرا عليها. فسارت سفن المسيحيين إلى شواطىء الدولة، وكانت تلك الدونانمة المختلطة مؤلفة من سبعين سفينة اسبانيولية ومائة وأربعين سفن البنادقة واثنا عشر للبابا وتسعة من سفن رهبنة مالطه.

وقابلت هذه الدونانمة العمارة العثمانية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة في ١٧ جمادى الأول سنة ٩٧٩هـ[٩٩] بالقرب من ليبنته، واشتبك بينهم القتال مدة ثلاث ساعات متوالية انتهى الأمر بعدها بانتصار الدونانمة المسيحية، فأخذت ١٣٠ سفينة عثمانية، وأحرقت وأغرقت ٩٤ وغنمت ٣٠٠ مدفعا و٣٠ ألف أسير. وهذه أول واقعة حصلت بين الدولة من جهة وأكثر من دولتين مسيحيتين من جهة أخرى. واشتراك البابا فيها يدل على أن المحرك لهذه التألبات ضد الدولة هو الدين، كما أيدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون.

وكان لهذا الفوز رنة فرح في قلوب المسيحيين أجمع.

٩٩-٧ اكتوبر سنة ١٥٧١م.

وفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ[١٠٠] توفي (السلطان سليم الثاني)، وعمره اثنين وخمسون سنة قمرية، ومدة حكمه ثماني سنين وخمسة أشهر، وتوفي عن ستة أولاد وهم: (مراد) و(محمد) و(سليمان) و(مصطفى) و(جهانكير) و(عبد الله) وثلاث بنات تولى بعده ابنه (السلطان مراد الثالث).

السلطان مراد خان الثالث

ولد هذا السلطان بالقسطنطينية في ٥ جمادى الأولى سنة ٩٥٣هـ[١٠١] وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمرا بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله أيام السلطان السابق وأفرط فيه الجنود الانكشارية، فثار الانكشارية لذلك واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية. وأمر بقتل أخوته، وكانوا خمسة، ليأمن على الملك من المنازعة، إذ صار قتل الأخوة عادة تقريباً.

وفي أيامه تحصلت (إيزابلا) ملكة الإنكليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها، وهي ان مراكبها تحمل العلم الإنكليزي، وكان لا يجوز لها ذلك قبلا، بل كانت السفن على اختلاف أجناسها، ما عدا سفن البندقية، لا تدخل إلى موانئ الدولة إلا تحت ظل العلم الفرنساوي ليس إلا، كما قضت بذلك العهود التي أبرمت مع (السلطان سليمان) وابنه (السلطان سليم الثاني)، وتجددت في أوائل حكم هذا السلطان.

وفي سنة ٩٨٦هـ [١٠٢]حصلت فتنة داخلية في مملكة مراكش بالمغرب الأقصى، ونازع زعيمها السلطان في الملك، وحصلت بينهما عدة وقائع مهمة وأخيرا استنجد سلطانها بالعثمانيين واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين، فأوعزت الدولة أو بالحري (محمد باشا صقللي) لوالي طرابلس بانجاد سلطانها الشرعي فأسرع بمساعدته. والتقى الترك والبرتغال

١٠٠-١٢ دسمبر سنة ١٥٧٤م.

١٠١-٤ يوليه سنة ١٥٤٦م.

١٠٢- سنة ١٥٧٨م.

بالقرب من محل يقال له القصر الكبير، وكان يوما مشهودا دارت فيه الدائرة على البرتغال وقتل فيه رئيس الثائرين المستنجد بهم. وبعد تمام النصر وإعادة الأمن والسكينة إلى ربوع مراكش عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أغدق عليها من الهدايا. وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة وصار شمال أفريقيا بأجمعه تابعا لها تماما أو خاضعا لنفوذها. ولم يبق لها في عصرنا هذا إلا ولاية طرابلس والسيادة الاسمية على مصر. واستولت فرانسا على تونس والجزائر، وصارت مراكش ميدان مسابقة لدسائس الأجانب تسعى كل دولة في ازدياد نفوذها بها، وبعبارة أخرى لابتلاعها.

وفي غضون ذلك قتل الخليفةُ الصدرَ الأعظم (محمد باشا صقللي) الذي حافظ على نفوذ الدولة بعد موت (السلطان سليمان) وتمكن بسياسته ودهائه من إبرام الصلح مع دول أوروبا المعادية لها، وأنشأ عمارة بحرية بعد واقعة (ليبنته)، وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وإرشاداته، وكوفئ على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه أو جناية ارتكبها، بل هي دسائس حاشية السلطان قضت عليه بالموت غدرا تبعا لدسائس الأجانب الذين لا يروق في أعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الأعمال على محور الاستقامة، فدسوا إليه من قتله تخلصا من صادق خدمته للدولة. فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لاسيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل الصدور.. فعين أولا من يدعى (أحمد باشا) ثم عزل في أغسطس سنة ٩٨٨هـ[١٠٣] وعين بعده (سنان باشا) أحد القواد المشهورين وأحد رؤساء الجيش المحارب في بلاد (الكرج)[١٠٤] وتولى قيادة هذا الجيش بعد موت قائده العام (مصطفى) . الذي قيل إنه انتحر مسموما لعدم حصوله على منصب الصدارة . ولكنه عزل من منصبه بعد قليل ونفي إلى خارج البلاد، وتولى مكانه (سياوس باشا) المجري الأصل في الصدارة العظمى، و(فرهاد) أو(فرحات باشا) أحد القواد العظام قائدا عاما للجيش المحارب في (الكرج) ولم يأت هذا القائد بأعمال تذكر لعدم انقياد الانكشارية وامتثالهم لأوامر رؤسائهم، ثم صار (عثمان باشا) الصدر الأعظم.

فسار في جيش (عرمرم) مؤلف من مائتين وستين ألف مقاتل، قاصدا بلاد (آذربيجان)

١٠٣- ١٥٨٠م.

١٠٤- بلاد الكرج معروفة الآن بـ (جورجيا) احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

فاخترقها بدون كثير مقاومة، ثم قصد مدينة (تبريز) عاصمة العجم فدخلها بعد أن انتصر على (حمزة ميرزا) وترك فيها حامية قوية. وبعد أن استمرت الحرب سجالا بين الدولتين نحو ست سنوات توفي في خلالها الصدر الأعظم (عثمان باشا) سر عسكر الجيش تم الصلح والسكينة.

إلا أن هذه السكينة لم تكن لترضي الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب للنهب والسلب وارتكاب مالا خير فيه، فكانت إذا انقطعت الحروب تمردوا وارتكبوا هذه القبائح في بلاد الدولة المعسكرين بها، بل وفي نفس الآستانة. فلما بلغهم أن المخابرات سائرة بين الدولة والعجم للوصول إلى الصلح ثاروا بالقسطنطينية، وطلبوا تسليم (الدفتر دار) ناظر المالية و(محمد باشا) بكلربك الروملي لقتلهما، بدعوى أنهما أرادا أن يصرفا إليهم نقودا ناقصة العيار! وحاصروهما في منزلهما إلى أن قتلوهما شر قتلة، ولم يقو السلطان على منعهم. وتمردوا مرة أخرى سنة ١٠٠١هـ[١٠٥] في الآستانة وأخرى في مدينة (بود) وقتلوا واليها ،وفي القاهرة وفي التبريز مما يطول شرحه، ووصلت بهم القحة إلى آخرها. ولذلك أشار (سنان باشا) الذي أعيد إلى منصة الوزارة في سنة ٩٩٧هـ بأشغالهم بمحاربة بلاد المجر، وأوعز إلى (حسن باشا) والي بلاد البشناق (بوسنه) أن يجتاز حدود بلاد المجر إعلانا للحرب، لكن هل يرجى نجاح أو فلاح حقيقي من جيوش بلغ عندها عدم النظام الدرجة القصوى حتى استطالت لقتل الولاة وعزل الحكام؟

وفي هذه الأثناء ولي (فرهاد باشا) منصب الصدارة في سنة ٩٩٩هـ، ثم أعيد (سياوس باشا) ثالثا إليها سنة ١٠٠٠هـ ، ثم أصيب السلطان بداء عياء وتوفي مساء ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٣هـ[١٠٦] وله من العمر خمسون سنة، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة تقريباً. وكان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان عاملا بمشورتهن، وكان من ضمن حظياته جارية بندقية الأصل من عائلة شهيرة بها اسمها (بافو) سباها قراصين البحر وبيعت في السراي السلطانية وسميت (صفية)، اصطفاها السلطان لنفسه وتدخلت كثيرا في السياسة الخارجية، وساعدت بلادها الأصلية كثيرا وهي والدة (السلطان محمد الثالث).

١٠٥- سنة ١٥٩٣م.

١٠٦-١٩ يناير سنة ١٥٩٥م.

السلطان محمد خان الثالث

ولد هذا السلطان في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤ هـ[١٠٧] وتولى بعد موت أبيه (مراد الثالث) وهو ابن (صفية) الإيطالية الأصل، وكان له تسعة عشر أخا غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه، ودفنوا معا تجاه أياصوفيا.

وفي أوائل حكمه سار على أثر سلفه في عدم الخروج إلى الحرب وترك أمور الداخلية في أيدي وزرائه، الذين منهم (سنان باشا) و(جفالة زاده) وآخر يدعى (حسن باشا)، ففسدوا في الأرض وباعوا المناصب الملكية[١٠٨] والعسكرية، وقللوا عيار العملة حتى علا الضجيج من جميع الجهات، وتعاقب انهزام الجيوش العثمانية أمام (مخائيل الفلاخي)، فضم لسلطانه بمساعدة الجيوش النمساوية إقليم البغدان وجزءا عظيما من ترنسلفاليا، لعدم وجود القواد الأكفاء لصدهم.

وفي ابتداء القرن السابع عشر للميلاد حصلت في بلاد (الأناطول) ثورة داخلية كادت تكون وخيمة العاقبة على الدولة، خصوصا ونيران الحروب مستعر لهيبها على حدود المجر والنمسا. وذلك أن فرقة من الجيوش المؤجرّة[١٠٩] (يسمونها بالتركية علوفه جى) التي هي بالنسبة للإنكشارية كنسبة (الباشبوزق)[١١٠] للجيوش المنتظمة، لم تثبت في واقعة (كرزت)[١١١] بل ولّت الأدبار وركنت إلى الفرار فنفيت إلى ولايات آسيا وأطلق عليها اسم (فراري) تحقيرا لهم وعبرة لغيرهم. وهناك اتّحد (قره يازيجي)[١١٢] مع أخيه المسمى (دلي حسن) والي بغداد،

١٠٧–مايو سنة ١٥٦٦م.

١٠٨– المقصود: المدنيّة.

١٠٩– وهم ما يسمّون اليوم بالمرتزقة.

١١٠– أي ذو الرأس الفاسد.

١١١– حصلت بين الجيوش العثمانية وبين جيوش المجر و النمسا، وكان النصر فيها للعثمانيين.

١١٢– أحد رؤساء المرتزقة.

فاتبع وسوسة أخيه وكفر بنعمة الدولة وجاهر بعصيانها.

فأرسل صقللي (حسن باشا) مع جيش جرار، لمحاربتهما وانتصر على (قره يازيجي) وألجأه إلى الاحتماء بجبال (جانق) على البحر الأسود حيث توفي من الجراح التي أصابته في الحرب تاركا أخاه للأخذ بثأره. وفعلا فاز (الدلي حسن) على صقللي (حسن باشا) وقتله على أسوار مدينة (توقات)، ثم هزم ولاة دياربكر وحلب، ودمشق وحاصر مدينة (كوتاهية) في سنة ١٠١٠هـ[١١٣]، واستفحل أمره حتى خيفت العاقبة. ولما رأت الدولة تجسم هذه النازلة أخذت في استعمال طرق السلم والتودد، فأجزلت إليه العطايا وأغدقت عليه الهبات، ثم عرضت عليه ولاية (بوسنه) فقبل بعد تعللات كثيرة ووضع السلاح.

وأعقبت هذه الثورة العظيمة ثورة أخرى في نفس الآستانة كاد شرها يتعدى إلى نفس الخليفة، وذلك أن جنود السباه ـ أي الخيالة ـ طلبوا من الدولة أن تعوض عليهم ما فقدوه من ربع الإقطاعيات المعطاة لهم في بلاد آسيا ـ التي كانوا يسمونها (تمارا) ـ بسبب فتنة (قرة يازيجي) و(دلي حسن) بآسيا الصغرى، ولما لم يكن في وسع الدولة تلبية طلبهم لنقص دخلها هي أيضا بسبب هذه الفتنة، تمردوا وثاروا وطلبوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية.

وفي هذه السنة توفي السلطان وكانت وفاته في ١٢ رجب سنة ١٠١٢هـ[١١٤] وعمره ٣٧سنة ومدة حكمه تسع سنين وخلفه ابنه (أحمد الأول).

١١٣- سنة ١٦٠١م.

١١٤-١٦ ديسمبر سنة ١٦٠٣م.

السلطان أحمد خان الأول

ولد هذا السلطان في ١٢ جمادي الثانية سنة ٩٩٨هـ[١١٥] فتولى الملك ولم يتجاوز سنّه الرابعة عشر إلا بقليل ولم يؤمر بقتل أخيه (مصطفى) بل اكتفى بحجزه بين الخدم و الجواري. وكانت أركان الدولة غير ثابتة في كافة بلاد آسيا ونار الحرب مستعرة على حدود العجم شرقا والنمسا غربا، وكانت الحرب مع العجم شديدة الوطأة في هذه المرة لتولي (الشاه عباس) الشهير قيادتها[١١٦]. ومما جعل لها أهمية أعظم من كافة الحروب السابقة اضطراب الأحوال في الولايات الشرقية عموما وسعي كل أمة من الأمم المختلفة النازلة بها للحصول على الاستقلال. وكان أهم رؤساء هذه الحركة رجلا كرديا لقب (بجان بولاد)[١١٧] لشدة بأسه وقوة إقدامه والأمير (فخر الدين الدرزي) وغيرهما.

وانتهز (الشاه عباس) هذه الفرصة لاسترجاع بلاد العراق العجمي التي أخذها العثمانيون، واحتل مدائن تبريز[١١٨] ووان وغيرهما.

ولمناسبة اضمحلال جيوش الدولة في هذه الحروب، التي استمرت عدة سنوات متوالية وموت أهم قوادها خصوصا الصدر الأعظم (قويوجي) يوم ٥ أغسطس سنة ١٠٢٠هـ[١١٩]، تراسلت الدولتان على الصلح، وتم الأمر بينهما في سنة ١٠٢١هـ[١٢٠] بمساعي (نصوح باشا)

١١٥–١٨ ابريل سنة ١٥٩٠م.

١١٦– لقب هذا الشاه بالكبير، وخلف محمد ميرزا في الملك سنة ١٥٨٥ ونودي به ملكا في خراسان، ثم سار إلى مدينة مشهد . التي كانت قد احتلتها قبائل الأوزبك . فاستخلصها منهم، وانتصر عليهم بقرب مدينة هرات سنة ١٥٩٧م ثم حارب الترك واستخلص منهم الولايات التي سبق أخذها من مملكة الصفويين واحتل مدائن بغداد والموصل وديار بكر، ثم اتحد مع شركة الهند الانكليزية وطرد البرتغاليين من ثغر هرمز. وتوفي سنة ١٠٣٧هـ الموافقة سنة ١٦٢٨م بعد أن حكم البلاد مدة ثلاث وأربعين سنة.

١١٧– أي ذو الروح الفولاذية.

١١٨– الأصح: استرجع فهي كانت عاصمة الدولة الصفوية أيام (الشاه إسماعيل).

١١٩– سنة ١٦١١م.

١٢٠– سنة ١٦١٢.

الذي تولى منصب الصدارة بعد موت (قويوجي مراد باشا) على أن تترك الدولة لمملكة العجم الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازي (سليمان الأول القانوني) بما فيها مدينة بغداد.

هذا ولو أن الحروب انقطعت على كافة حدود الدولة تقريباً، إلا أنه قد حصلت ما بين سنة ١٠٢٠هـ[١٢١] وسنة ١٠٢٤هـ[١٢٢] بعض مناوشات بحرية بين مراكب الدولة وسفن رهبان (مالطه) وملك اسبانيا وولايات إيطاليا، كان الفوز فيها غالبا لمراكب الأعداء. ولذلك أمر الصدر (نصوح باشا) بجمع جميع سفن الدولة في مياه البحر الأبيض المتوسط لصد تعديات مراكب الإفرنج وحفظ طريق البحر بين الآستانة وولايات الغرب، فانتهز بعض أخلاط القوزاق انسحاب السفن الحربية من البحر الأسود، وأغاروا على ثغر سينوب ونهبوا ما به. ولما علم السلطان بذلك غضب على الصدر الأعظم، وسعى به بعض مبغضيه طمعا في نوال منصبه وما فتئوا يوغرون صدر سيده عليه حتى أمر بقتله في ١٤ أكتوبر سنة ١٠٢١هـ[١٢٣] فخنق في قصره.

هذا وازدادت في أيام (السلطان أحمد الأول) العلاقات السياسية مع دول الإفرنج، فجددت مع فرانسا العقود والعهود القديمة في سنة ١٠١٤هـ[١٢٤] مع بعض زيادات طفيفة. وفي سنة ١٠١٩هـ[١٢٥] جددت مع مملكة بولونيا الاتفاقات التي أبرمت معها في زمن (السلطان محمد الثالث) وأهم ما بها تعهد بولونيا بمنع قوزاق الروسية من الإغارة على إقليم البغدان وتعهد الدولة بمنع تتار القرم من التعدي على حدودها. وفي سنة ١٠٢١هـ[١٢٦] تحصلت ولايات الفلمنك[١٢٧] على امتيازات تجارية تضارع ما منحته كل من فرنسا وإنكلترا، وهم (أي الفلمنك) الذين أدخلوا في البلاد الإسلامية استعمال التبغ أي تدخين الدخان،

١٢١- سنة ١٦١١م.

١٢٢- سنة ١٦١٤م.

١٢٣- سنة ١٦١٤م.

١٢٤- سنة ١٦٠٤م.

١٢٥- سنة ١٦٠٩م.

١٢٦- سنة ١٦١٢م.

١٢٧-هي مجموعة (هولاندا) و(بلجيكا).

فعارض المفتي في استعماله وأصدر فتوى بمنعه، فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السراي السلطانية حتى اضطروه إلى إباحته.

وفي ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ[١٢٨] توفي السلطان (أحمد الأول) وعمره ٢٨ سنة، ومدة حكمه ١٤ سنة تقريباً. ولصغر سن ولده (عثمان) الذي كان لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السلطان (عثمان الأول)، أي تنصيب أكبر الأولاد أو أحدهم مكان والده، وأوصى بالملك بعده لأخيه.

السلطان مصطفى خان الأول

ولد هذا السلطان سنة ١٠٠١هـ وقضى طول عمره داخل محلات الحرم، ولم يتعاطى أشغالا مطلقا، بل ولم يعلم من أمور المملكة شيئا كما كانت عادة بعض ملوك بني عثمان، وهي أن كل سلطان يتولى يأمر بقتل أخوته أو يحجزهم في السراي كي لا يكون منهم منازع في الملك.

ولم يلبث هذا السلطان على سرير الملك إلا ثلاثة أشهر تقريباً ثم عزله أرباب الغايات وفي مقدمتهم المفتي و(قيزلر أغاسي) أي آغا السراي[١٢٩]، وساعدهم الانكشارية على ذلك لتوزيع الهبات عليهم عند تولية كل ملك جديد. فعزل في أول سنة ١٠٢٧ هـ[١٣٠] وأقاموا مكانه (السلطان عثمان الثاني) المولود في غضون سنة ١٠١٣هـ.

١٢٨-٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧م.

١٢٩- المسؤول عن جناح محظّيات السلطان.

١٣٠-٢٦ فبراير سنة ١٦١٨م.

السلطان عثمان خان الثاني

هو ابن (السلطان أحمد الأول) وأمر بإطلاق قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه، وأرسل مندوبا لملك فرنسا (لويس الثالث عشر) يسمى (حسين جاووش) بجواب اعتذار عما حصل من الإهانة لسفيره، وبذلك انحسمت هذه المشكلة.

وحدث في هذه الأثناء أن تدخلت بولونيا في شؤون إمارة البغدان لمساعدة (جراسياني) الذي عزل بناء على مساعي (بتلن جابور) أمير (ترنسلفانيا)، وأضيفت إمارته إلى (إسكندر شربان) أمير الفلاخ وصارت الإمارتان تابعتين له، فاتخذ (السلطان عثمان) هذا التدخل سببا في إشهار الحرب على مملكة بولونيا وتحقيق أمنيته، وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلا بين أملاك الدولة ومملكة (الروسيا) التي ابتدأت في الظهور، وقبل الشروع في الحرب أمر بقتل أخيه (محمد) تبعا للعادة، فقتل في ١٢ يناير سنة ١٠٣١هـ[١٣١] مأسوفاً عليه.

ثم أصدر أمرا بتقليل اختصاصات المفتي ونزع ما كان له من السلطة في تعيين وعزل الموظفين، وجعل وظيفته قاصرة على الإفتاء، حتى يأمن شر دسائسه التي ربما تكون سببا في عزله كما كانت سبب عزل سلفه، لكن أتى الأمر على الضد بما كان يؤمل. كما سيجيء. وبعد أن أتم هذه التمهيدات الداخلية سير الجيوش والكتائب لمحاربة مملكة بولونيا.

وتم الصلح وأمضى من الطرفين في ٦ أكتوبر سنة ١٠٣٠هـ[١٣٢]، فحنق السلطان على الانكشارية من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل وإلزامه على الصلح مع بولونيا بدون تتميم قصده أي ضمها إلى أملاكه وعزم على إبطالها وإفنائها عن آخرها. ولأجل التأهب لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها على القتال، حتى إذا كملت عدة وعددا استعان بها على إبادة هذه الفئة الباغية. وشرع فعلا في إنفاذ هذا المشروع، لكن أحس الانكشارية بذلك فهاجوا فهاجوا وتذمروا واتفقوا على عزل

١٣١- سنة ١٦٢١م.

١٣٢- سنة ١٦٢٠م.

السلطان، وتم لهم ذلك في يوم ٩ رجب سنة ١٠٣١هـ[١٣٣] وأعادوا مكانه (السلطان مصطفى الأول)، ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه في سراية وانتهكوا حرمتها وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته، وقادوه قهرا إلى ثكناتهم موسعيه سبا وشتما وإهانة مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الدولة، وزيادة على ذلك أنهم نقلوه من هناك إلى القلعة المعروفة بذات السبع قلل (يدي قله)، حيث كان بانتظاره كل ممن يدعى (داود باشا) و(عمر باشا) الكيخيا و(قلندر أوغلي) وغيرهم، فأعدموا (السلطان عثمان) الحياة، ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ومدة حكمه أربع سنين وأربعة أشهر.

وبعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة في أيدي الانكشارية، ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم، فعزلوا (داود باشا) قاتل السلطان بعد بضع أيام، وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهارا، وارتكبوا أنواع المظالم في القسطنطينية. ولما بلغ خبر قتل السلطان إلى الولاة وانتشرت بينهم أخبار الفوضى السائدة في الآستانة، أشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته. واقتفى أثره والي (أرضروم) المدعو (أباظة باشا) مدعيا أنه يريد الانتقام (للسلطان عثمان) شهيد الانكشارية، وسار بمن تبعه إلى (سيواس) و(انقره) ففتحهما، مصادرا التزامات الانكشارية وإقطاعاتهم.. قاتلا كل من وقع في مخالبه من هذه الفئة التي تلوثت بدم سلالة سلاطينهم، وتبعه والي سيواس وسنجق (قره شهر)، ثم سار إلى مدينة (بورصة) فحاصرها ودخلها بعد ثلاثة أشهر إلا قلعتها فلم تسلم.

واستمرت الاضطرابات الداخلية في نفس كرسي الخلافة، ولا أمن ولا سكينة مدة ثمانية عشر شهرا متوالية، حتى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب، وشبع الانكشارية نهبا وسلبا وقتلا في نفوس الأهالي وأموالهم، عينوا من يُدعى (كمانكش علي باشا) صدرا أعظم لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد، فأشار عليهم بعزل (السلطان مصطفى) ثانيا لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هـ[١٣٤]، وولوا

١٣٣- ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢م.

١٣٤- ١١ سبتمبر ١٦٢٣م.

مكانه (السلطان مراد الرابع)، وبقي في العزل إلى أن توفي في غضون سنة ١٠٤٩هـ[١٣٥].

السلطان مراد خان الرابع

هو ابن (السلطان أحمد الأول) ابن (السلطان محمد الثالث) ولد في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٠١٨هـ[١٣٦] وولاه الانكشارية بعد عزل عمه (السلطان مصطفى الأول) ابن (السلطان محمد الثالث) مع حداثة سنّه، كي لا يكون معارضا لهم في أعمالهم الاستبدادية، ولا مضعفا لنفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره، واستمروا مدة العشر سنين الأولى من حكمه على غيهم وطغيانهم.

وانتهز (الشاه عباس) ملك العجم هذا الاختلال فرصة لاستعادة بلاده. وذلك أن رئيس الشرطة في مدينة بغداد واسمه (بكيرآغا) ثار على الوالي وقتله واستبد في الأحكام فأرسلت له الدولة قائدا يدعي (حافظ باشا) حاربه وحصره في دار السلام، فسولت (لبكير آغا) نفسه أن يخون الدولة وراسل (الشاه عباسا) وعرض عليه تسليم المدينة، فسار الشاه بجنوده لاحتلالها. وفي الوقت نفسه عرض (بكير آغا) على القائد العثماني أن يرد المدينة للعثمانيين لو أقرته الدولة على ولايتها فقبل ذلك، واحتلتها الجنود قبل وصول شاه العجم، وهو لما وصلها حاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها. وفي هذه الأثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالأستانة، وفي كل مرة يطلبون قتل من يشاءون من رؤساء الحكومة المخالفين لهم في الرأي، ولا يرى السلطان مندوحة من إجابة طلباتهم إسكاتاً لهم وخوفا من أن يصل إليه أذاهم.

وفي غضون ذلك أصدر السلطان أمره بعزل (خسرو باشا) وإعادة (حافظ باشا) إلى منصب الصدارة، فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل إلا لمساعدته لهم، فثاروا وأرسلوا إلى الآستانة يطلبون إرجاعه، ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة عظيمة خيف منها على حياة الملك، فإنهم دخلوا السراي السلطانية في ١٨رجب

١٣٥-سنة ١٦٣٩م.

١٣٦-٢٩ أغسطس سنة ١٦٠٩م.

سنة ١٠٤١هـ[١٣٧] وقتلوا (حافظ باشا) رغما عن تدخل السلطان ومنعهم عنه. فاغتاظ السلطان وأمر بقتل (خسرو باشا) محرك هذه الفتنة، فقتل. وصار يأمر بقتل كل من ثبت عليه أقل اشتراك في الحركات الأخيرة. وبذلك داخلهم الرعب ووقعت مهابته في قلوبهم، وخشيه الصغير والكبير، والأمير والحقير، وسار كل في طريقه مكبا على عمله بدون أن يأتي ما يكدر صفو كأس الراحة العمومية، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من التعدي، وسادت السكينة في القسطنطينية وضواحيها وجميع أنحاء المملكة.

وكانت آخر ثورة للانكشارية في آخر شوال سنة ١٠٤١هـ[١٣٨]. حركها من يدعى (رجب باشا) لغاية في النفس، فأمر السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبابيك السراي حتى يراها المتجمهرون، فسكنت الخواطر ولم يحصل ما يعبث بالأمن بعد ذلك في مدته.

ثم سار السلطان بنفسه إلى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات (السلطان الغازي سليمان الأول القانوني) ففتح مدينة (اريوان) في ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥هـ[١٣٩] وأرسل السلطان رسولين إلى الآستانة لتزيين المدينة مدة سبعة أيام، وقتل أخويه (بايزيد) و(سليمان) لبلوغه عنهما ما كدر خاطره واتباعا للعادة المذمومة. ثم قصد بغداد واسترده من شاه ايران، ثم وصل خبر انتصار العجم على الجنود العثمانية إلى مسامع السلطان فأراد إذلالهم وكسر شوكتهم فسار بجيش عظيم كامل العدة والعدد إلى مدينة دار السلام و ابتداء حصارها بكيفية منتظمة في ٨ رجب سنة ١٠٤٨ هـ[١٤٠]، وكان يشتغل بنفسه في اعمال الحصار الشاقة تنشيطا للجند، وسلط على أسوارها المدافع الضخمة التي نقلها إليها، ولما فتحت المدافع فيها فتحة كافية للهجوم أصدر السلطان أوامره بذلك، فهجمت الجيوش في صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨هـ[١٤١] ولم يثنها قتل الصدر الأعظم. (طيار محمد باشا)، الذي تولى بعد موت (بيرام

١٣٧-٩ فبراير سنة ١٦٣٢م.

١٣٨-١٩ مايو سنة ١٦٣٢م.

١٣٩-١٠ أغسطس سنة ١٦٣٥م.س

١٤٠-١٥ نوفمبر سنة ١٦٣٨م.

١٤١-٢٥ ديسمبر سنة ١٦٣٨م.

محمد باشا) المتوفي في ٦ ربيع الآخر سنة ١٠٤٨هـ[١٤٢]. بل استمرت الحرب ٤٨ ساعة متوالية ختمت بانتصار الجنود العثمانية، ودخولهم المدينة وإرجاعها إلى المملكة العثمانية، ولم تزل تابعة إليها حتى الآن.

وبعد ذلك رغب شاه العجم عدم استمرار القتال وعرض الصلح على الدولة بان يترك لها مدينة بغداد بشرط أن تترك هي إليه مدينة (اريوان)، ودارت المخابرات بين الدولتين عشرة أشهر كاملة. وفي ٢١ جمادى الأول سنة ١٠٤٩هـ[١٤٣] تم الصلح على ذلك وانقطعت أسباب العدوان من بينهما.

ثم توفي عن غير عقب في ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ[١٤٤]، وسنّه ٣١ سنة، ومدة حكمه ١٦ سنة و١١ شهرا، وتولى بعده أخوه (إبراهيم).

١٤٢-١٧ أغسطس سنة ١٦٣٨م.

١٤٣-١٩ سبتمبر سنة ١٦٣٩م.

١٤٤-فبراير سنة ١٦٤٠م.

السلطان إبراهيم خان الأول

هو ابن (السلطان أحمد الأول) ولد في ١٢ شوال سنة ١٠٢٤ هـ[١٤٥] افتتح حروبه الخارجية بإرسال جيش جرار إلى بلاد (القرم)لمحاربة (القوزاق) الذين احتلوا مدينة (آزاق) فحاربهم العثمانيون واستردوا المدينة منهم بعد أن أحرقوها وذلك سنة ١٠٥١هـ[١٤٦].

وأمر السلطان بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة (كريد) لأهمية موقعها الجغرافي، وجهزت (الدونانمة) وسارت باحتفال زائد تحت قيادة من يدعى (يوسف باشا) إلى أن ألقت مراسيها أمام مدينة خانية أهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ هـ[١٤٧]. وافتتحها بدون حرب تقريباً لعدم وصول (الدونانمة))البندقية إليها في الوقت المناسب، فانتقم (البنادقة) بحرق ثغور (بتراس وكورون ومودون) من بلاد (موره). ويقال: أن السلطان أراد في مقابلة ذلك قتل المسيحيين أجمع، ولولا معارضة المفتي (أسعد زاده أبي سعيد أفندي) لتمّ هذا الأمر.

ثم إنّ (السلطان إبراهيم) أراد أن يفتك برؤوس الانكشارية في ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم لتذمرهم وانتقادهم على أعماله ورغبتهم في التداخل في شؤون الدولة والخروج عن حدودهم. فعلموا بقصد السلطان وتآمروا على عزله، واجتمعوا بمسجد يقال له (أورطه جامع) وانضم إليهم بعض العلماء و(المفتي عبد الرحيم أفندي) وأهاجوا عساكر الانكشارية والسباه وقرر الجميع بعزله وتولية ابنه (محمد الرابع) المولود في ٢٩ رمضان سنة ١٠٥١هـ[١٤٨] أي الذي لم يتم السابعة من عمره. وتمت هذه الثورة يوم ١٨ رجب سنة ١٠٥٨هـ[١٤٩] وبعد ذلك بعشرة أيام أظهر السباه عدم ارتياحهم من الملك الفتي، وطلبوا

١٤٥-٤ نوفمبر سنة ١٦١٥م.

١٤٦- سنة ١٦٤٢م.

١٤٧-٢٤ يونيه سنة ١٦٤٥م.

١٤٨-أول يناير سنة ١٦٤٢م.

١٤٩-٨ أغسطس سنة ١٦٤٨م.

إعادة (السلطان إبراهيم) إلى عرش الخلافة فخشي، رؤساء العصابة التي عزلته من تغلب السباه وإرجاعه رغم أنفهم وصمموا على قتله، فساروا إلى السراي ومعهم الجلاد (قره علي) وقتلوه خنقا .كما قتلوا (السلطان عثمان الثاني) من قبله . فكانت مدة حكمه ٨ سنين و٩ شهور، وسنّه ٣٤ سنة، وبذلك ارتاح خاطرهم واطمأن بالهم.

السلطان محمد خان الرابع

انفرد بالملك، ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى، وصارت الجنود لا ترحم صغيرا ولا توقر كبيرا، وسعوا في الأرض فسادا، ورجعت الحالة إلى ما وصلت إليه قبل تولي (السلطان مراد الرابع) بل إلى أتعس منها.

وسرى عدم النظام إلى الجنود المحاصرة (كنديا) بكيفية اضطر قائدهم (السر عسكر حسين باشا) لرفع الحصار عنها، وكذلك كان سريان هذا الداء العضال إلى الجنود البحرية سبب انهزام (الدونانمه) العثمانية أمام (دونانمة) العدو أمام مدينة (فوقيه) سنة ١٦٤٩ هـ. ثم ثار بآسيا الصغرى في هذه السنة أيضا رجل يدعى (قاطرجي أوغلي)[١٥٠] وانضم إليه آخر يدعى (كورجي يني) وهزما (أحمد باشا) والي الأناطول وسارا إلى القسطنطينية، ولولا وقوع الشقاق بينهما لخيف على العاصمة من وقوعها في قبضتهما، لكن وقع الخلف بينهما وافترقا فحاربهما الجند وهزم الثاني وقتل وأرسل رأسه إلى السلطان. وتمكن الآخر وهو (قاطرجي أوغلي) من الحصول على العفو عنه وتعيينه واليا (للقرمان) وبذلك انتهت هذه الثورة.

وبعد ذلك توالت الثورات تارة من الانكشارية، وطورا من السباه، وآونة من الأهالي لما يثقل عليهم نير استبداد الجنود، وتعاقب عزل وتنصيب الصدور بسرعة غريبة لم تسبق في الدولة ولا في أيام حكم (السلطان سليم) تبعا للأهواء والغايات، واختل النظام، أو بعبارة صريحة صار عدم النظام نظاما للدولة.

وفي هذه الأثناء تغلبت مراكب جمهورية البندقية على عمارة الدولة عند مدخل (الدردنيل)، واحتلت (تنيدوس) وجزيرة (لمنوس)[١٥١] وغيرهما. و منعت بذلك المراكب الحاملة للقمح وأصناف المأكولات عن الوصول إلى القسطنطينية من هذا الطريق حتى غلت جميع الأصناف، واستمر الحال على هذا المنوال ولا نظام ولا أمن ولا سكينة. ثم تولى منصب الصدارة (محمد باشا) الشهير بـ (كوبرياي) فعامل الانكشارية معاملة من يريد أن يطاع

١٥٠- أي سائق البغال.

١٥١- جزيرتين صغيرتين تشكلان معا قلاعا لحماية مدخل الدردنيل.

إطاعة عمياء وقتل منهم خلقا كثيرا عندما ثاروا، كعادتهم لما رأوه رجلا خبيرا بدخائل الأمور قادرا على قمعهم وإلزامهم العود إلى السكينة، وأمر بعد تعيينه بقليل بشنق (بطريرك الأروام) لما ثبت له تدخله في الدسائس والفتن الداخلية.

ومما يؤثر عنه أنه استصدر أمرا من السلطان بمنع قتل سلفه، وكان قد أمر بقتله.

وتوفي (محمد باشا) بعد أن أوصى السلطان بتولية ابنه (أحمد) وخلفه ابنه (كوبريلي زاده أحمد باشا). واستمر على خطة أبيه من عدم التساهل مع الجندية ومجازات من يقع منه أقل أمر مخل بالنظام.

وفي زمانه استولى المسيحيون ـ الفرنسيون ـ على إقليمي الجزائر وتونس.

ثم تقلد منصب الصدارة بعد وفاته (قره مصطفى) ولم يكن كفؤاً للسير في الطريق الذي رسمه (كوبريلي) الكبير وولده، بل اتبع مصلحته الذاتية وباع المناصب العالية والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة حالا واستقبالا بدراهم معدودة، وبسوء سياسته كدر خواطر (القوزق) وأبعدهم عن الدولة، ثم حصل قتال بينه وبين المسيحيين عند أسوار فيينا، وبعد أن استمر القتال طول النهار فاز المسيحيون بالنصر وانهزم (قره مصطفى باشا) وجيوشه أمامهم، تاركا كافة المدافع والذخائر والمؤن. فكان يوما مشهودا يجعل الولدان شيبا، ثم جمع (قره مصطفى باشا) ما بقي من جنوده ولمّ شعثهم على نهر (راب)، ومن هناك قفل راجعا إلى مدينة (بود) والملك (سوبيسكي)[١٥٢] سائر خلفه، يقتل كل من يتخلف في السير، وفتح مدينة (جران) بكل سهولة. ولما وصل خبر هذا الخذلان الذي لم يسبق لجيوش الدولة أمر (السلطان محمد الرابع) بقتل الصدر (قره مصطفى باشا)، وأرسل أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل برأسه إلى القسطنطينية، وعين مكانه (إبراهيم باشا) سنة ١٠٩٥هـ[١٥٣].

وفي سنة ١٠٩٦هـ[١٥٤] احتل النمساويون عدة حصون وقلاع شهيرة أهمها قلعة (نوهزل) وبسبب هذه الانهزامات المتعاقبة عزل الصدر (إبراهيم باشا) ونفي في جزيرة (رودس) ولم

١٥٢- ملك بولونيا الذي أتى لمحاربة المسلمين بناءا على إلحاح البابا عليه.

١٥٣- وبعد استخلاص مدينة (فينا) تألبت كل من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة ماطا والبابا ومملكة الروسيا على محاربة الدولة العثمانية وأطلق على هذه التحالف (التحالف المقدس).

١٥٤- سنة ١٦٨٥م.

يلبث في منصب الصدارة إلا سنتين، وتعين مكانه (السر عسكر سليمان باشا).

وكان أول أعمال (سليمان باشا) الإسراع إلى إنجاد مدينة (بود) التي كان يحاصرها (الدوك دي لورين) بتسعين ألف جندي لكن لم تجد مساعدته شيئا فان القائد المذكور دخلها عنوة في يوم ١٣شوال ١٠٩٧هـ[١٥٥]، ولم تدخل هذه المدينة ثانيا في حوزة العثمانيين إلى الآن.

وبعد سقوط هذه المدينة في قبضة النمساويين ومحالفيهم أراد (الصدر سليمان باشا) أن يأتي عملا يكفر عنه عند الأمة ما أتاه من التهاون في مساعدة مدينة (بود)، لكن أتاه الضرر من حيث كان يريد النفع لنفسه، فإنه جمع من بقايا كتائبه جيشا مؤلفا من ستين ألف مقاتل يعززهم سبعون مدفعا، فالتحم الجيشان في ٣ شوال سنة ١٠٩٨هـ[١٥٦] وبعد قتال شديد دارت الدائرة على الجيوش العثمانية، فانهزموا عن آخرهم وأخذ العدو في جمع ما معهم من المدافع والسلاح والمؤن والذخائر، واحتلت جيوشه إقليم (ترنسلفانيا) وعدة قلاع من (كرواسيه). ولما ذاع خبر هذا الانكسار بين الجيوش الموجودة بالأستانة هاجوا وماجوا وأرسلوا للجيوش الباقية مع (الصدر سليمان باشا) فاشهروا عليه العصيان، ولولا فراره إلى بلغراد لأعدموه الحياة.

ثم أرسل الانكشارية والسباه وفدا للآستانة يطلب من السلطان الأمر بقتل الصدر، فلم ير بدا من ذلك، وأمر بقتله تسكينا لثورة غضب الجند. ولما لم يفد شيئا ولم تعد السكينة بين الجيوش وخيف على المملكة العثمانية من الداخل، قرر الوزير الثاني القائم مقام (قره مصطفى) باتحاده مع العلماء عزل (السلطان محمد الرابع) فعزلوه في ٢ محرم سنة ١٠٩٩هـ[١٥٧]، بعد أن حكم أربعين سنة وخمسة أشهر، وبقي في العزلة إلى أن توفي في ٨ ربيع الآخر سنة ١١٠٤هـ[١٥٨]، بالغا من العمر ٥٣ سنة.

١٥٥- ٢ / ٦ / ١٦٨٦م.

١٥٦- ١٢ أغسطس سنة ١٦٨٧م.

١٥٧- ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧م.

١٥٨- ١٧ ديسمبر سنة ١٦٩٢م.

السلطان سليمان خان الثاني

هو ابن (السلطان إبراهيم الأول)، ولد في ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ هـ[١٥٩] جلس على كرسي الملك، فأغدق العطايا على الجنود ولم يعاقبهم على عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل خلفه. ولذلك ما لبثت أن تمردت ثانيا وقتلت قوادها وحاصرت الصدر الجديد (سياوس باشا) في سراية وقتلوه وسبوا أزواجه. فكانت الآستانة فوضى، وانتهز الأعداء هذه الاختلالات والاضطرابات المستمرة لفتح الحصون العثمانية، فاحتل النمساويون قلاع (ارلو) و(لبا) وغيرها، واحتل (موروزيني) البندقي مدينة (ليبه) من بلاد اليونان وكافة سواحل (دلماسيا) سنة ١٠٩٩هـ[١٦٠]، وفي السنة التالية أي سنة ١١٠٠هـ[١٦١] سقطت مدائن (سمندريه) و(قلومباز) و(بلغراد) في أيدي النمساويين، ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة ١١٠١هـ[١٦٢] مدائن (نيش وودين) من بلاد الصرب، وذلك لعدم كفاءة الصدر (مصطفى باشا) الذي خلف (سياوس باشا) قتيل الانكشارية. ولما رأى السلطان توالي المصائب عزل هذا الصدر وعين مكانه (كوبريلي مصطفى باشا) ابن (كوبريلي محمد باشا) الكبير، ولم يكن أضعف همة من والده بل كان يشبهه في علو المكانة ومضاء العزيمة.

وبذلك أعاد (كوبريلي مصطفى باشا) بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعدم إطاعة الإنكشارية.

وفي ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢هـ[١٦٣] توفي (السلطان سليمان الثاني) عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

السلطان أحمد خان الثاني

١٥٩–١٥ أبريل سنة ١٦٤٢م.

١٦٠– سنة ١٦٨٧م.

١٦١– سنة ١٦٨٨م.

١٦٢– سنة ١٦٨٩م.

١٦٣–٢٣ يونيه سنة ١٦٩١م.

المولود في ٦ ذي الحجة سنة ١٠٥٢هـ[١٦٤]، فأبقى الصدر الأعظم اعتمادا عليه في الحرب والسلم. لكن لم تمهل المنية هذا الوزير الشهير، بل قصفت عوده الرطيب وهو في عنفوان شبابه، فتوفي في٢٤ ذي القعدة سنة ١١٠٢هـ[١٦٥] في ساحة القتال عند مهاجمة الجيوش النمساوية القائد لها (لويز دي باد)، فكان موته ضربة على الدولة، لعدم كفاءة (عربه جي على باشا) الذي خلفه في منصب الصدارة. ولم تحصل أمور ذات بال في أيام هذا السلطان، بل اقتصرت الحرب على بعض مناوشات ليس لها من الأهمية شأن، يذكر غير أن البنادقة احتلت في سنة ١١٠٦هـ[١٦٦] جزيرة ساقز.

وتوفي في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١١٠٦ هـ[١٦٧] وعمره ٥٤ سنة قمرية تقريباً، بعد أن حكم أربع سنين وثمانية أشهر.

١٦٤-٢٥ فبراير سنة ١٦٤٣م.

١٦٥-١٩ أغسطس سنة ١٦٩١م.

١٦٦- سنة ١٦٩٤م.

١٦٧-٧ فبراير سنة ١٦٩٥م.

السلطان مصطفى خان الثاني

ابن (السلطان محمد الرابع) المولود في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤هـ[١٦٨] وكان متصفا بالشجاعة وثبات الجأش، ولذلك أعلن بعد توليته بثلاثة أيام رغبته في قيادة الجيوش بنفسه، فسار إلى بلاد (بولينا) مستعينا بفرسان القوزاق وانتصر على (البولونيين) عدة مرات. ولولا ما لاقاه من الدفاع أمام مدينة لمبرج لتقدم كثيرا، لكن كان هذا الحصن المنيع من أكبر العوائق لاستمرار فتوحاته. ومن جهة أخرى حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة أزاق ببلاد القرم التي حاصرها بطرس الأكبر.

ثم تقلد البرنس (أوجين دي سافوا) القائد الشهير قيادات الجيش النمساوي فأعمل الفكرة في عدم ملاقاة الجيش العثماني في الأراضي السهلة، بل حاوله مدة بدون أن يمكن السلطان من مهاجمته، حتى فاجأه هو أثناء عبور الجنود العثمانية لنهر (تيس) وعدم استعدادها للدفاع بالقرب من قرية صغيرة اسمها (زينتا)[١٦٩] فقتل منهم عددا عظيما من ضمنهم (الصدر الأعظم الماس محمد باشا) وغرق منهم في النهر أكثر ممن قتل، ولولا وجود السلطان على الضفة الأخرى لسقط في أيديهم أسيرا. وكان ذلك في ٢٥ صفر سنة ١١٠٩هـ[١٧٠] ثم تبعهم (البرنس أوجين) ودخل بلاد البوسنة فاتحا. وعين بعد ذلك (عموجه زاده حسين باشا كوبريلي) صدرا أعظم.

وبعد مخابرة طويلة أمضيت . بين الدولة والنمسا والروسيا والبندقة وبولونيا . معاهدة (كارلوفتس) في ٢٤ رجب سنة ١١١٠هـ[١٧١]، فتركت الدولة بلاد المجر بأجمعها وإقليم (ترنسلفانيا) لدولة النمسا، وتنازلت عن مدينة أزاق وفرضتها لروسيا، فصار لها بذلك يد على البحر الأسود، وزادت أهمية جوارها للدولة أضعاف ما كانت عليه من قبل، وردت

١٦٨-٢ يونيه سنة ١٦٦٤م.

١٦٩- بلدة في الشمال الشرقي من يوغسلافية بالقرب من الحدود الرومانية.

١٧٠-١٢ سبتمبر سنة ١٦٩٧م.

١٧١-٢٦ يناير سنة ١٦٩٩م.

لمملكة بولونيا مدينة (كامينك) وإقليمي (بودوليا) و(اوكروين)، وتنازلت للبندقية عن (بحيث) جزيرة مورا إلى نهر (هكساميلون) وإقليم (دلماسيا) على البحر (الادرياتيكي) بأجمعه تقريباً. واتفقت مع النمسا على مهادنة خمس وعشرين سنة، وأن لا تدفع هي أو غيرها شيئا للدولة على سبيل الجزية أو مجرد الهدية. وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزءا ليس بقليل من أملاكها بأوروبا وزادت أطماع الدول في بلادها.

وقد عين السلطان للصدارة العظمى (رامي محمد باشا) فسار على أثر (كوبريلي حسين باشا)، وشرع في إبطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم. فأهاج ضده أرباب الغايات، وكثير عدادهم، وأثاروا عليه الانكشارية لميلهم بالطبع إلى الهياج للسلب والنهب وهتك الأعراض، فطلبوا عزله من السلطان فامتنع، وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت إلى الثائرين وعزلوا (السلطان مصطفى الثاني) في ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥هـ[١٧٢] بعد أن حكم ثمان سنوات وثمانية شهور.

وبقي معزولا إلى أن توفي في ٢٢ شعبان من السنة المذكورة[١٧٣] وعمره أربعون سنة تقريباً، وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه.

١٧٢-١٥ أغسطس سنة ١٧٠٣م.

١٧٣-٣١ ديسمبر سنة ١٧٠٣م.

السلطان أحمد خان الثالث

ابن (السلطان الغازي محمد الرابع)، المولود في ٣ رمضان سنة ١٠٨٣هـ[١٧٤]، وعند تعيينه وزع أموالا طائلة على الانكشارية، وسلم لهم في قتل المفتي (فيض الله أفندي) لمقاومته لهم في أعمالهم. ثم لما قرت الأحوال وعادت السكينة اقتص من رؤوس الانكشارية فقتل منهم عددا ليس بقليل، وعزل في ٦ رجب سنة ١١١٥ هـ[١٧٥] الصدر الأعظم (نشانجي أحمد باشا) الذي انتخبه الانكشارية وقت ثورتهم، وعين في هذه الوظيفة المهمة زوج أخته (داماد حسن باشا)، لكن لم تحمه مصاهرته للسلطان ولا ما أتاه من الأعمال النافعة، فأعملوا فكرهم وبذلوا جهدهم حتى تحصلوا على عزله في ٢٨ جمادى الأولى ١١١٦هـ[١٧٦] ومن بعده كثر تغيير الصدور تبعا للأهواء. وكانت نتيجة ذلك أن الدولة لم تلتفت لإجراءات بطرس الأكبر ملك الروسيا في داخلية بلاده، ولم تدرك كنه سياسته الخارجية المبنية على إضعاف الدولة العثمانية وأنه قد ابتدأ في تنفيذ مشروعه.

ثم عزل الوزير السابق وتولى بعده (بلطه جي محمد باشا) فأشهر الحرب على روسيا وقاد الجيوش بنفسه، وبعد مناورات مهمة حصرت الجيوش العثمانية البالغ قدرها مأتي ألف جندي قيصر الروسيا وخليلته (كاترينا)، ولو استمر عليهم الحصار قليلا لأخذ أسيرا هو ومن معه وانمحت الدولة الروسية كلية من العالم السياسي.

لكن استمالت (كاترينا) (بلطه جي محمد باشا) إليها، وأعطته كافة ما كان معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة، فخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر وجيشه.. مكتفيا بإمضاء القيصر لمعاهدة (فلكزن) المؤرخة ٩ جمادى الآخر سنة ١١٢٣هـ[١٧٧] الذي أخلى بمقتضاها مدينة أزاق، وتعهد فيها بعدم التدخل في شؤون القوزاق مطلقا.

١٧٤- ٢٣ ديسمبر سنة ١٦٧٣م.

١٧٥- ١٥ نوفمبر سنة ١٧٠٣م.

١٧٦- ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٠٤م.

١٧٧- ٢٥ يوليه سنة ١٧١١م.

ثم عزله السلطان، وتولى بعده (يوسف باشا)، وكان محبا للسلم، فامضى مع الروسيا معاهدة جديدة، تقضي بعدم المحاربة بينهما مدة ٢٥ سنة. لكن لم تمض على هذه المعاهدة بضعة أشهر حتى قامت الحرب ثانية بين الدولتين بسبب عدم قيام (بطرس الأكبر) بأحد شروط معاهدة (فلكزن) القاضي بتخريب فرضة (تجانزك) الواقعة على بحر آزاق، فتدخلت إنكلترا وهولاندا في منع الحرب، لإضراره بتجارتهما. وبعد مخابرات طويلة أمضيت بينهما معاهدة جديدة سميت (بمعاهدة أدرنة) في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢٥هـ[١٧٨] تنازلت الروسيا بمقتضاها عما لها من الأراضي على البحر الأسود حتى لم يبق لها عليه موانئ أو ثغور.

ثم تولى منصب الصدارة (علي باشا داماد) بعد (يوسف باشا) وكان ميالا للحرب.. غيورا على صالح الدولة.. ميالا لاسترجاع ما ضاع من أملاكها، خصوصا بلاد (موره). ولذلك أعلن الحرب على جمهورية البندقية، وفي قليل من الزمن استرد البحيث جزيرة[١٧٩] بأجمعها والمدن التي كانت باقية للبنادقة بجزيرة (كريد)، حتى لم يبق لهم ببلاد اليونان إلا جزيرة (كورفو)، فاستعانت البندقية (بشارل الثالث) إمبراطور النمسا، أحد الماضين على معاهدة (كارلوفتس)، ولكون الحرب كانت قد انقضت ووضعت أوزارها بين النمسا وفرنسا، وتم الصلح بينهما بمعاهدتي (أوترك ورستاه)، أسرع الإمبراطور لمديد المساعدة إلى البنادقة، بأن أرسل إلى السلطان بلاغا يطلب منه فيه إرجاع كل ما أخذه من البنادقة . وكان أعطى لهم بمقتضى معاهدة (كارلوفتس) . وإلا فيكون امتناعه بمثابة إعلان للحرب، فلم تقبل الدولة هذا الطلب وفضلت الحرب. وعقب ذلك طلبت الروسيا من الدولة تحوير المعاهدة السابقة بكيفية تبيح لتجارها المرور من أراضي الدولة وبيع سلعهم فيها، ولحجاجها التوجه لبيت المقدس وغيره من الأماكن والأديرة المقدسة عندهم، بدون دفع خراج مدة إقامتهم أو رسوم على جوزات المرور، فقبلت الدولة.

ولما تولى (داماد ابراهيم باشا) منصب الصدارة سنة ١١٣٠هـ[١٨٠] أراد أن يستعيض عما

١٧٨- ١٨ يونيو سنة ١٧١٣م.

١٧٩- البحيث جزيرة : يقصد بها شبه الجزيرة.

١٨٠- سنة ١٧١٨م.

فقدته الدولة من ولايات باحتلال ارمينيا وبلاد الكرج[١٨١]، لكن كان سبقه بطرس الاكبر[١٨٢] واجتاز جبال القوقاز التي كانت تحد بلاده من جهة الجنوب واحتل اقليم طاغستان مع كافة سواحل بحر الخزر الغربية، فكادت الحرب أن تقع بين الدولة والروس .. ولوساطة السفير الفرنسي أمضيت معاهدة بين الطرفين بأن يمتلك كل منهما ما احتله من بلاد الفرس.

أما الفرس فلم يقبلوا بهذا التقسيم المزري بشرفهم، والقاضي بضياع جزء ليس بقليل من بلادهم، لكن لم يتمكنوا من صد هجمات العثمانيين الذين فتحوا سنة ١١٣٨ هـ[١٨٣] عدة مدن و قلاع، أهمها همدان واريوان وتبريز. وطلب (الشاه طهماسب) من الدولة أن ترد إليه كل ما أخذته من بلاد أجداده، فلم تجبه الدولة، ولذا أغار على بلادهم ولعدم ميل السلطان إلى الحرب ورغبته في الصلح ثار الانكشارية وأهاجوا الأهالي، فأطاعوهم طلبا للسلب والنهب في ١٥ ربيع الأول ١١٤٣هـ[١٨٤]، وطلب زعيم هذه الثورة المدعو (بترونا خليل) من السلطان قتل الصدر الأعظم والمفتي و(قبودان باشا) ـ أي أميرال الأساطيل البحرية ـ بحجة أنهم مائلون لمسالمة العجم، فامتنع السلطان عن إجابة طلبهم. ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعا أو كرها، فخوفا من أن يتعدى أذاهم إلى شخصه سلم لهم بقتل الوزير و(الأميرال) دون المفتي، فقبلوا، وألقوا جثثهم إلى البحر. لكن لم يمنعهم انصياع السلطان لطلباتهم من التطاول إليه، بل جرأهم تساهله معهم على العصيان عليه جهارا، فأعلنوا بإسقاطه في مساء اليوم المذكور عن منصة الأحكام، ونادوا بابن أخيه (السلطان محمود الأول) خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين، فأذعن (السلطان أحمد الثالث) وتنازل عن الملك بدون معارضة. وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة و١١ شهراً، وبقي معزولا إلى أن توفي في سنة ١١٤٩هـ.

١٨١- تعرف الآن بـ (جورجيا).

١٨٢- امبراطور روسيا.

١٨٣- سنة ١٧٢٥م.

١٨٤-٢٨ سبتمبر سنة ١٧٣٠م.

السلطان محمود خان الأول

هو ابن (السلطان مصطفى الثاني) ولد في ٤ محرم سنة ١١٠٨هـ[١٨٥]، ولما تولى لم يكن له إلا الاسم فقط، وكان النفوذ لـ (بطرونا خليل)، يولي من يشاء ويعزل من يشاء تبعا للأهواء والأغراض، حتى عيل صبر السلطان من استبداده، وتجمهر حوله رؤساء الانكشارية لتعدي هذا الزعيم على حقوقهم، واتفقوا على الغدر به تخلصا من شره، فقتلوه. ولم يقو محازبوه على الأخذ بثأره، بل اطفئت ثورتهم في دمائهم. وبذلك عادت السكينة للمدينة، وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم.

وبعد أن استتب الأمن استأنفت الدولة الحرب مع مملكة الفرس، وتغلبت الجيوش العثمانية على جنود (الشاه طهماسب) في عدة وقائع أهرقت فيها الدماء مدرارا، فطلب الشاه الصلح، وتم بين الدولتين الأمر في ١٢ رجب سنة ١١٤٤هـ[١٨٦] على أن تترك مملكة العجم للدولة كل ما فتحته ما عدا مدائن تبريز وأردهان وهمدان وباقي إقليم لورستان. لكن عارض (نادرخان) أكبر ولاة للدولة في هذه المعاهدة، وسار بجيوشه إلى مدينة اصفهان، وعزل (الشاه طهماسب) وولى مكانه ابنه القاصر (عباساً الثالث)، وأقام نفسه وصيا عليه. ثم قصد البلاد العثمانية، وبعد أن انتصر على جنود الدولة حصر مدينة بغداد، فأسرع الوزير طوبال أي الأعرج (عثمان باشا) إلى محاربته، وجرت بينهما عدة وقائع قتل فيها (عثمان باشا) المذكور، فطلبت الدولة الصلح. وبعد مخابرات طويلة اتفق مندوب الدولة مع (نادر خان) في ١٨ جمادى الأول سنة ١١٤٩هـ[١٨٧] في مدينة (تفليس) حيث نودي بـ (نادر خان) ملكا على العجم، على أن ترد الدولة إلى العجم كل ما أخذته منها، وأن تكون حدود الدولتين كما تقرر بمعاهدة سنة ١٠٤٩هـ[١٨٨] المبرمة في زمن (السلطان الغازي مراد الرابع).

١٨٥-٣ أغسطس سنة ١٦٩٦م.

١٨٦-١٠ يناير سنة ١٧٣٢م.

١٨٧-٢٤ سبتمبر سنة ١٧٣٦م.

١٨٨- سنة ١٦٣٩م.

وهناك غلطة أخرى ارتكبها رجال الدولة، وهي نزع السلطة في إقليمي الفلاخ والبغدان[١٨٩] من أشراف البلاد خوفا من تمردهم وطلبهم الاستقلال، وتعيين بعض أغنياء الروم من تجار الآستانة قرالات ممتازين فيهما، في مقابل جعل سنوي يدفع للخزانة السلطانية، وكانت تعطى لمن يدفع خراجا أكثر من غيره، وظاهر أن من يقدم على التعهد بمثل هذه المبالغ الطائلة عازم ولا شك على الحصول على ما يدفعه أضعافا مضاعفة من دماء الأهالي. فاستبد هؤلاء المعينون بالسكان وساموهم الذل والخسف، وفتكوا بالأشراف الأصليين وقتلوا كل من خالفهم منهم، وباعوا ألقاب الشرف جهارا حتى انقرضت أغلب العائلات الأثيلة في المجد، وحلت محلها عائلات جديدة أغلبها من تجار الأروام . الذين اشتروا الألقاب بدراهم معدودة . وكان نتيجة هذه السياسة أن سئم الأهالي هذه السلطة، ومالوا بكلياتهم إلى الروسيا، ووجهوا أنظارهم لها معتقدين أنها ستكون منقذتهم من هذه المظالم المستمرة، ولو أنصفت الدولة لجعلتها ولايتين بدون امتيازات تتناوبها الولاة، فما كانت تطمح إلى الاستقلال الإداري، فالسياسي.

وفي يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة ١١٦٨هـ[١٩٠] توفي (السلطان محمود الأول) بالغا من العمر ستين سنة، وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة.

١٨٩- هما الآن ضمن الحدود السياسية لرومانيا.

١٩٠-١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٤م.

السلطان عثمان خان الثالث

ولد هذا السلطان في سنة ١١١٠ هـ[١٩١] وبعد أن تقلد السيف في جامع (أبي أيوب الأنصاري) على حسب العادة القديمة وأبقى كبار الموظفين في وظائفهم، عين في منصب الصدارة العظمى (نشانجي علي باشا) بدل (محمد سعيد باشا) الذي سبق تعيينه صدرا بعد عودته من مأموريته في فرنسا. فأعتمد (علي باشا) هذا على ميل السلطان إليه، وسار في طريق غير حميد حتى أهاج ضده الأهالي أجمع. ولكون السلطان كان من عادته المرور ليلا في الشوارع والأزقة متنكرا لتفقد أحوال الرعية، والوقوف على حقيقة أحوالهم سمع أثناء تجواله بما يرتكبه وزيره من أنواع المظالم والمغارم، وبعد أن تحقق ما نسب إليه بنفسه أمر بقتله جزاء له وبوضع رأسه في صحن من الفضة على باب السراي عبرة لغيره، فقتل في ١٦ محرم سنة ١١٦٩هـ[١٩٢] وعين مكانه من يدعى (مصطفى باشا)، ثم عزله في ٢٠ ربيع الأول سنة ١١٧٠ هـ وعين مكانه (محمد راغب باشا) الشهير، وتوفي (السلطان عثمان الثالث) في ١٧ صفر سنة ١١٧١ هـ[١٩٣] وكانت مدة حكمه ٣ سنين و١١ شهرا، وعمره ستون سنة وخلفه (مصطفى الثالث).

السلطان مصطفى خان الثالث

ابن (السلطان أحمد الثالث) المولود سنة ١١٢٩هـ، وكان ميالا للإصلاح، محبا لتقدم بلاده، خصوصا وزيره الأول (راغب باشا) الذي مر ذكره.

وأرادت الدولة في زمانه الحرب مع روسيا وأوعزت إلى (كريم كراي) خان القرم أن يفتح بابا للحرب فصدع بالأمر، ولكي يجعل الحق من جهة الدولة احتال على بعض القوزاق

١٩١-سنة ١٦٩٦م.

١٩٢-٢٢ أكتوبر سنة ١٧٥٥م.

١٩٣-١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٦م.

التابعين للروسيا حتى أوقعهم في حبالة نصبها لهم، وأدت بهم إلى التعدي على حدود الدولة والإغارة على إحدى المدن التابعة لها وقتل بعض سكانها، فأشهرت الدولة الحرب على الروسيا. وافتتحها (كريم كراي) بأن أغار بخيله ورجله على إقليم (سربيا) الجديدة الذي عمرته الروسيا، مع أن المعاهدات التي بينها وبين الدولة كانت تقضي عليها بتركه صحراء بدون استعمار ليكون فاصلا بين أملاك الدولتين، وعمرته الروسيا لمنع وصول المساعدة من خان القرم إلى بولونيا عند مسيس الحاجة.

وكانت نتيجة إغارة (كريم كراي) على هذه الولاية خراب كثير من المستعمرات الروسية وعودته بكثير من الأسرى.

ثم سار الوزير (نشانجي محمد أمين باشا) الذي تولى الصدارة في جمادي الآخر سنة ١١٨٢هـ بجيوشه للدفاع عن مدينة (شوكزيم) التي حاصرها (البرنس جالتسين) الروسي، فلم ينجح، لعدم اتباعه الأوامر العسكرية الواردة إليه من السلطان المهتم بنفسه بأمور الحرب، ولو لم يقد الجيوش بذاته. وكان جزاء القائد المذكور أن قتل بأمر السلطان في ٩ ربيع الآخر سنة ١١٨٣هـ، وأرسل رأسه إلى الآستانة عبرة لغيره من القواد وعين مكانه في الوزارة والسر عسكرية (مولدواني علي باشا)، وكان أشد اهتماما من سلفه بأمور الجند وأكثر اطلاعا على ضروب القتال، لكن عاكسته الطبيعة وكانت هي السبب في تقهقره.

وبعد هذا الانهزام الذي لم يكن فيه للروس من فخر، التزم (مولود واني باشا) بالتقهقر بعد اخلاء مدينة (شوكزيم)، فدخلها (البرنس جالتسين) واحتل على الفور ولايتي (الفلاخ) و(البغدان).

وفي ذلك الوقت كان (علي بيك) الملقب بـ(شيخ البلد) الذي استقل تقريباً بشؤون مصر. وفتح بمساعدة قائد الدونمانة الروسية في البحر الابيض مدائن غزة ونابلس واورشليم ويافا ودمشق. وكان يستعد للسير إلى حدود بلاد الاناطول إذ ثار عليه أحد بيكاوات المماليك، وهو (محمد بيك) الشهير بـ (أبي الذهب)، فعاد (علي بيك) إلى مصر لمحاربته وانضم إلى جيوشه أربعمائة جندي روسي فقابلهم (أبو الذهب) عند الصالحية بالشرقية وفاز عليهم بالنصر، وأسر (علي بيك) واربعة من ضباط الروس بعد أن قتل كل من كان معهم. ورجع إلى مصر، حيث توفي (على بيك) مما أصابه من الجراح، فقطع رأسه وسلم مع الأربعة

ضباط الروسيين إلى الوالي العثماني (خليل باشا) وهو أرسلهم إلى القسطنطينية.

ثم توفي (السلطان مصطفى الثالث) في ٨ ذي القعدة سنة ١١٨٧هـ[١٩٤]، وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية شهور.

السلطان عبد الحميد خان الأول

ابن (السلطان أحمد الثالث) ولد سنة ١١٣٧هـ[١٩٥]، وقضى مدة حكم أخيه (مصطفى الثالث) محجوزا في سرايته كما جرت به العادة. وفي اليوم الثالث من توليته توجه في موكب حافل إلى جامع (أبي أيوب) لتقلد سيف (السلطان عثمان) مؤسس هذه الدولة، ولم يوزع على الجنود الانعامات المعتادة، لنضوب خزائن الدولة التي استنزفتها الحرب الأخيرة. ثم أقر الصدر الأعظم (محسن زاده) وأغلب كبار الموظفين والقواد البرية والبحرية في مناصبهم لعدم وقوع الخلل في الأعمال.

ثم وقعت الحرب بين الدولة وبين روسيا، انتهت بهزيمة العثمانيين وطلب الصدر الأعظم المهادنة وقبل المعاهدة التي تم الاتفاق عليها في سنة ١١٣٧ هـ[١٩٦] وهي مكونة من ثمانية وعشرين بنداً. أضيف إلى هذه المعاهدة بندان سريّان، إحداهما تتضمن المصاريف الحربية، وذلك لأن الدولة كانت تعهدت بتأدية خمسة عشر ألف كيس لروسيا في مدة ثلاث سنين، يدفع منها في كل سنة قسط، وهو خمسة آلاف كيس. والمادة الثانية سرعة تخلية جزائر البحر الأبيض ـ تأييدا لما هو مذكور في المادة السابعة عشرة من العهدة المذكورة ـ وأسطول روسيا الموجود في البحر الأبيض، وإن كان مشترطا في المادة المذكورة أنه يخرج في مدة ثلاثة أشهر، فدولة روسيا قد تعهدت بإخراجه قبل المدة المذكورة إذا أمكن، وبذلك انتهت هذه الحرب ونالت روسيا أقوى أمانيها.

١٩٤-٢١ يناير سنة ١٧٧٤م.

١٩٥-سنة ١٧٢٤م.

١٩٦- ٢١ يوليو ١٧٧٤م

وتوفي (السلطان عبد الحميد الأول) في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣هـ[١٩٧]، بالغا من العمر ٦٦ سنة، ومدة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور، وتولى بعده (سليم الثالث).

السلطان سليم خان الثالث

ابن (السلطان مصطفى الثالث)، المولود سنة ١١٧٥هـ[١٩٨]، تولى وجو السياسة مكفهر ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع، فبذل جهده في تقوية الجيوش وإرسال المؤن والذخائر، لكن كان اليأس قد استولى على الجنود وغادر كثير منهم مراكزهم.

وفي هذه السنة اتحد القائد الروسي مع قائد الجيوش النمساوية في الأعمال الحربية وضما جيوشهما لبعضهما، فاستظهرا على العثمانيين في سنة ١٢٠٣ هـ[١٩٩] وكانت عاقبة ذلك أن استولى الروس على مدينة بندر . (الحصينة) . واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا، ودخل النمساويون مدينة بلغراد، وفتحوا بلاد الصرب.

وبعد تمام الصلح مع النمسا والروسيا أخذت الدولة في إصلاح داخليتها وخصوصا العسكرية والبحرية، فعين أحد المتقربين من الذات السلطانية واسمه (كوشك حسين باشا) قبودانا عاما. فوضع نظاما للجنود المشاة، وشرع في تنسيق فرق جديدة وتدريبها على النظام الأوروبي، فأنشأ أول فرقة منتظمة في سنة ١٢١١هـ[٢٠٠] وجعل عددها ١٦٠٠ جندي تحت قيادة ضابط إنكليزي دخل في الدين الإسلامي وسمي (إنكليز مصطفى). وكان القصد من ترتيب العساكر النظامية الاستغناء بهم عن جنود الانكشارية الذين صاروا علة على الدولة ومن عوامل تأخرها بعد أن كانوا أهم عوامل تقدمها وقت الفتوحات المستمرة التي كانوا يعودون منها بكثير من الغنائم، حتى اعتادوا النهب. وصاروا لما لم يجدوا بلادا مفتتحة حديثا لسلب أهاليها يعتدون على أهالي الآستانة والعواصم الأخرى بالسلب والنهب وغير ذلك،

١٩٧-٨ أبريل سنة ١٧٨٩م.

١٩٨-سنة ١٧٦٢م.

١٩٩- ٣١ يوليو وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٨٩م.

٢٠٠- سنة ١٧٩٦م.

فضلا عن عصيانهم المرة بعد الأخرى، وعزلهم الصدور والوزراء، وتعديهم على السلاطين بالعزل أو القتل لما يرون منهم معارضا لفسادهم أو ضعفا في معاقبتهم.

وظهرت في هذه الأثناء فتنة (عثمان باشا) والي (ودين) الملقب بـ (بازوند أوغلي) وانضمام كثير من أهالي الصرب اليه واستظهاره على جنود الدولة التي أرسلت لأقماعه. وأخيرا سافر إليه (كوجك حسين باشا) بنفسه، وبعد عدة مناوشات كان الحرب فيها سجالا بينهما خشي هذا الوزير من دسائس أرباب الغايات أن تعصي كافة ايالات البلقان، فتدارك الأمر ومنح (بازونداوغلي) ولاية (ودين) طول حياته، وبذلك حسمت الفتنة سنة ١٢١٢هـ[٢٠١].

دخول الفرنسيين مصر

وفي سنة ١٢١٣هـ[٢٠٢] أمرت الجمهورية الفرنساوية (بونابرت) القائد الشهير بالمسير إلى مصر لفتحها . بغير إعلان حرب على الدولة . وأوصته بكتمان هذا الأمر حتى لا تعلم به إنكلترا فتسعى في إحباطه، مع أن القصد منه لم يكن الا منع مرور تجارة الإنكليز من مصر إلى الهند وبالعكس. فجهز في مدينة طولون جيشا مؤلفا من ٣٦ ألف مقاتل . أغلبهم من العساكر المدربين في الحروب التي جرت بين فرنسا وإيطاليا وانتهت بمعاهدة (كامبوفورميو) . وعشرة آلاف بحري تحملهم دونانمة مركبة من ٣٠ سفينة حربية و٧٢ قراويت و٤٠٠ مركب حمل، وأضاف إلى جيشه ١٢٢ عالما على اختلاف العلوم والمعارف لدرس القطر المصري والبحث عما يلزم لإصلاحه واستغلاله.

وفي مايو سنة ١٢١٣هـ[٢٠٣]، رحل (بونابرت) بهذا الجيش بدون أن يعلم أحدا بوجهته، فوصل جزيرة (مالطه) في ١٠ يونيو واحتلها بعد أن دافع من فيها من رهبان القديس (حنا

٢٠١-الموافقة سنة ١٧٩٧م.

٢٠٢- الموافقة سنة ١٧٩٨م.

٢٠٣- سنة ١٧٩٨م.

الاورشليمي)، وفي ١٧ محرم سنة ١٢١٣هـ[٢٠٤] وصل أمام مدينة الإسكندرية وأنزل عساكره على بعد أربع فراسخ منها، وبعد أن دخلها عنوة ترك بها القائد (كليبر)، وسار هو قاصدا مدينة القاهرة عن طريق الصحراء الممتدة غرب فرع رشيد، فقابله (مراد بيك) بشرذمة من المماليك عند مدينة شبراخيت بالبحيرة في ٢٩ محرم، فهزمه (بونابرت)، وواصل السير حتى وصل إلى مدينة (انبابة) مقابل القاهرة وحصلت بينه وبين (إبراهيم بيك) و(مراد بيك) أمراء المماليك واقعة الأهرام الشهيرة في ٧ صفر وتقهقروا أمام المدافع الفرنساوية، فدخل (بونابرت) وجيوشه مدينة القاهرة بعد أن أعلن بها أنه لم يأت لفتح مصر بل انه حليف الباب العالي، أتى لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين أوامره، كما قال الإنكليز عند دخولهم مصر سنة ١٢٩٩هـ[٢٠٥].

وبذلك صار القطر المصري من البحر الأبيض المتوسط إلى أقاصي الصعيد في قبضته. ثم أسس المجلس العلمي للبحث عما يجعل احتلاله بوادي النيل دائميا.

وتحقق (نابليون) أنه إن لم يفاجئ الدولة في بلاد الشام قبل أن تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الحرب وخيمة عليه، وان من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها إلا إذا احتل القطر السوري. فلهذه الدواعي عزم (بونابرت) على فتح بلاد الشام، وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصدا بلاد الشام من طريق العريش فاحتلها في أواخر شعبان سنة ١٢١٣هـ، ثم دخل مدينة غزة في ١٩ رمضان وارتحل عنها في ٢٣ منه ووصل الرملة في ٢٥ منه ومنها إلى يافة فوصلها في ستة وعشرين رمضان، ولما آنس منها المقاومة حاصرها ودخلها عنوة في يوم أول شوال، ثم رحل منها قاصدا مدينة عكا، وقبل مزاولته ليافا ارتكب أمرا شنيعا لم يسبق في التاريخ وهو أمره بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره، ثم حاصر مدينة عكا من جهة البر وهاجمها مرارا.

ونزل جيش رودس العثماني بأبي قير وتحصن بها وكان يبلغ عدده ١٨ ألف مقاتل فسار (بونابرت) من القاهرة لمحاربتهم فتغلب عليهم والتجأ من لم يقتل منهم إلى المراكب في ٢٤

٢٠٤- ١يوليو .

٢٠٥- سنة ١٨٨٢م.

صفر سنة ١٢١٤هـ[٢٠٦] وأسر قائدهم الأكبر (مصطفى باشا) وكثيرا من الجنود.

ولنرجع إلى ذكر علاقات الباب العالي وفرنسا والروسيا وانكلترا بعد خروج الفرنساويين من مصر فنقول:

إن (بونابرت) أرسل إلى بلاد الشرق الجنرال (سبستياني) لتجديد ربط الاتحاد والوداد مع الدولة، فسافر إلى الآستانة حاملا خطابا من (بونابرت) إلى السدة السلطانية، وفي أثناء إقامته بالآستانة تمكن بمساعيه من عزل أميري الأفلاق والبغدان المنحازين لروسيا فعزلا في ٥ جمادى الثاني سنة ١٢٢١هـ[٢٠٧] وعيّن بدلهما من المخلصين للدولة فساء ذلك الروسيا وخشيت من امتداد نفوذ فرنسا في الشرق، فأرسلت جيوشها لاحتلال هاتين الولايتين بدون إعلان حرب، بدعوى أن تغيير أميريهما مضر بحقوق جوارها، فانتشبت نيران القتال بينها وبين الدولة واتحدت إنكلترا مع الروسيا في هذه الحرب لتأييد طلباتها، فأرسلت إحدى دونانماتها تحت قيادة اللورد (دوق وورث) أمام الدردنيل، وأرسل سفيرها السير (اربوثنوت) بلاغا إلى الباب العالي يطلب منه تحالف الدولة وإنكلترا، وتسليم الأساطيل العثمانية وقلاع الدردانيل إلى انكلترا، والتنازل عن ولايتي الأفلاق والبغدان إلى الروسيا، وطرد الجنرال (سبستياني) من الآستانة، وإعلان الحرب على فرنسا، والا تكن إنكلترا مضطرة لاجتياز الدردنيل وإطلاق مدافعها على الآستانة. فلم تقبل الدولة هذه المطالب بل أخذت في تحصين البوغار وإقامة القلاع على ضفتيه. لكن لم يكن الوقت كافيا لتحصينه بكيفية تجعل المرور منه غير ممكن، وفي ١٢ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٢١هـ[٢٠٨] قرن الإنكليز القول بالفعل، واجتاز الأميرال اللورد (دوك وورث) بوغاز الدردنيل بدون أن يحصل لمراكبه ضرر يذكر من مقذوفات القلاع، ووصل إلى فرضة (جاليبولي) ودمر كافة لسفن الحربية العثمانية الراسية بها، ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ لائحته التي سبق ذكرها.

وبورود الخبر إلى الدولة بذلك وقع الرعب في قلوب سكان الآستانة خشية من وصول السفن الإنكليزية إلى البوسفور وهناك تكون الطامة الكبرى لوجود أغلب السرايات الملوكية

٢٠٦- ٢٨ يوليو.

٢٠٧- ٢٠ أغسطس سنة ١٨٠٦م.

٢٠٨- ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٧م.

ودواوين الحكومة على ضفتيه. ووقع الوزراء في حيص بيص فأقروا بعد مداولات طويلة أن يذعنوا لطلب إنكلترا وأرسلوا إلى الجنرال (سبستياني) يدعونه للخروج من الآستانة خوفا من تفاقم الخطب، فقابل الفرنساوي الرسول العثماني محاطا بجميع مستخدمي السفارة والضباط الفرنساويين المستخدمين بجيوش الدولة وبحريتها، وأجابه قائلا إني لا أخرج من الآستانة الا مكرها، ثم طلب أن يقابل السلطان مقابلة خصوصية فأجيب طلبه. ولما قابله أظهر له استعداد فرنسا لمساعدة الدولة، وأن (الإمبراطور نابليون) قد أصدر أوامره إلى جيوشه المعسكرة بسواحل الادرياتيك للسفر إلى الآستانة لمساعدة الدولة على مقاومة إنكلترا ورفض طلباتها، فاقتنع جلالته بعدم جوار الانصياع لطلبات الإنكليز، وإنها لو رأت من الدولة مقاومة أذعنت هي لسحب مطالبها خوفا على تجارتها من البوار لو صدرت الأوامر بعدم قبولها في الممالك المحروسة. فأخذ في تحصين العاصمة وبناء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة، و شكل الفرنساويون النازلون بالآستانة فرقة من مأتي مقاتل أغلبهم من المدفعية، وكذلك الاسبانيون لمضادة سفيرهم المركيز (دالمنييرا) لسياسة إنكلترا في الشرق. واهتم كل من في الآستانة في هذا العمل الوطني حتى الشيوخ والأطفال والنساء وبذل الانكشارية من الاهتمام اكثر مما كان يؤمل منهم. وكان السلطان بنفسه يناظر الأشغال ويحث المشتغلين بها على مواصلة الليل بالنهار لإتمام القلاع لصد هجمات الأعداء. فلم يمض بضعة أيام حتى صارت المدينة في مأمن من كل طارئ، ووقفت عدة سفن في مدخل البوسفور لمنع كل مهاجم، مع استمرار الأشغال في (بوغاز الدردنيل).

فلما رأى الأميرال الإنكليزي استحالة دخوله البوسفور وقرب انتهاء تحصينات الدردنيل، خشي من حصر مراكبه بين البوغازين وقفل راجعا إلى البحر الأبيض.

وفي غضون ذلك اتحد المفتي (قاضي عسكر الروملي) مع قائم مقام الصدر الأعظم ولفيف من العلماء عل السعي في إبطال التزام العسكري الجديد ـ الذي ادخله السلطان في الجيوش العثمانية ـ قائلين إنه بدعة مخالفة للشرع. وللوصول إلى غايتهم هذه أخذوا يغرون العساكر غير المنتظمة التي كانت أضيفت إلى الفرق المنتظمة. وبعد هذا أخذت الجنود غير منتظمة تستعد بايعاز مهيجيها .. وانتخبوا لهم رئيسا منهم اسمه (قباقجي أوغلي) وهو أخذ في الاستعداد للدخول إلى الآستانة. وفي صبيحة يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٧هـ دخل هو ومن

معه من الجنود غير المنتظمة، وانضم إليهم نحو مأتين من البحرية وثمانمائة من الانكشارية، حتى إذا وصل هذا الجمع إلى المحل المعروف باسم (آت ميدان) أتوا بقدور الانكشارية وصفوها ـ علامة على العصيان ـ وقرء عليهم أسماء جميع المعضدين لمشروع النظام العسكري من الوزراء أو الذوات والأعيان، فانتشر الثائرون إلى منازلهم وقتلوهم وأتوا برؤوسهم ووضعوها أمام القدور.

ولما بلغ السلطان خبر هذه الثورة أصدر على الفور أمرا بإلغاء النظام الجديد، وصرف العساكر النظامية لكن لم يكتف الثائرون بل قرروا عزل السلطان خوفا من أن يعود لتنفيذ مشروعه، وساعدهم على ذلك المفتي الذي هو في الحقيقة المحرك لهذه الثورة فأفتى بأن: كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحا للملك. واستمرت هذه الثورة يومين ثم أدت في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢هـ[٢٠٩] بفصل (السلطان سليم الثالث)، فعزل. وكانت مدة حكمه ١٩ سنة، وبقي إلى أن توفي في ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣هـ[٢١٠]وعمره ٤٨ سنة تقريباً وأقيم بعده (مصطفى الرابع).

٢٠٩–٢٨ يونيه سنة ١٨٠٧م.

٢١٠–٢٨ يونيو سنة ١٨٠٨م.

السلطان مصطفى خان الرابع

ابن (السلطان عبد الحميد الأول) المولود سنة ١١٩٣ هـ، وكلف المفتي بتبليغ (السلطان سليم) خبر عزله، فذهب إليه وبلغه ذلك مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية، فقبل السلطان وذهب إلى سرايه الخصوصية وتفرق الجنود النظامية شذر ومذر.

ولم يكن (السلطان مصطفى) الا كآلة يديرها مبغضوا النظام الجديد كيف شاءوا تبعا لأهوائهم، فثبت الوزراء الذين لم يقتلوا في الثورة في وظائفهم واعتمد تعين (قباقجى أوغلي) حاكما لجميع قلاع البوسفور.

ولما وصلت أنباء هذه الثورة إلى الجيوش العثمانية المشتغلة بمحاربة الروس عند نهر الطونة شمل الانكشارية السرور، ولما رأوا من قائدهم العام وهو الصدر الأعظم (حلمي إبراهيم باشا) عدم الاستحسان لما حصل قتلوه، وأقاموا مكانه (جلبي مصطفى باشا) فوقع الفشل في الجيوش. ولولا وجود أغلب جيوش الروسيا في ألمانيا لمحاربة الإمبراطور (نابليون) الذي كانت تخر عروش الملوك أمامه، لكانت نتائج هذه الحروب أوخم مما سبقها.

وفي أثناء ذلك وصل خبر انتصار (نابليون) على الروس ومحالفيهم. وعقب ذلك حصل الصلح بين فرنسا والروسيا بمقتضى معاهدة (تلسيت). وجاء في المعاهدة السرية التي اتفق عليها (نابليون) و(اسكندر الاول) قيصر روسيا إن لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بكيفية مرضية، بعد قبول هذه التوسط بخمسة وثلاثين يوما فتتّحد فرنسا مع روسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الآستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع إرضاء النمسا بجزء يسير، وكيفية ذلك التقسيم أن يكون لفرنسا بلاد بوسنه وألبانيا (الارنؤود) و(أبيروس) وبلاد اليونان ومقدونيا، وللنسما بلاد الصرب، ولروسيا الافلاق والبغدان والبلغار وإقليم تراس لغاية نهر ماريتسا.

ولنرجع إلى ذكر ما حصل في الآستانة بعد نجاح ثورة (قباقجي أوغلي) فنقول: إنه لم يمض قليل حتى وقع الخلاف بين رؤساء الثورة، فاتحد أولا (قباقجي أوغلي) مع المفتي على عزل القائم مقام (مصطفى باشا)، فعزل وأبعد إلى خارج البلاد وأقيم مكانه من يدعي (طاهر

باشا)، ثم عزل لرغبة المحافظة على حقوق وظيفته وسافر إلى روستجق والتجأ إلى حاكمها (مصطفى باشا البيرقدار). وكان هذا الأخير من محازبي (السلطان سليم) ويود إرجاعه لمنصة الأحكام، فكاشف بذلك (جلبي مصطفى باشا) الصدر الأعظم وباقي الوزراء وأقنعهم بوجوب مجازاة المفتي و(قباقجي مصطفى) على تهييج الجنود غير المنتظمة وعزل السلطان والاستئثار بالسلطة، فوافقه على هذا الأمر كل من كاشفهم به وأصدر الصدر حكما على (قباقجي مصطفى) قاضيا بإعدامه ووكل على تنفيذه أحد رجال المؤامرة واسمه (حاجي علي) وهو تعهد بالقبض عليه عنوة، وسار إلى الآستانة في مائة فارس، بينما كان البيرقدار قاصدها في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدرنه، ولما وصل (حاجي) إلى ضواحي الآستانة علم أن (قباقجي مصطفى) مقيم في قصر له خارج المدينة، فهاجمه وقتله، ثم أبرز لجنوده حكم الصدر الأعظم وأخبرهم أنه عين قائدا لهم، فلم يقبلوا بذلك بل أحاطوا به وبمن معه من الفرسان، وكادوا يأسرونه لولا ما أظهره من الشجاعة التي تمكن بها من التخلص واللحاق بالبيرقدار، وكان قد وصل هو والصدر الأعظم إلى الآستانة وعسكر خارجها.

ولما علم السلطان بهذه الوقائع خشي من تعدي الثورة عليه ووصول ضررها إليه، وأمر بعزل المفتي وصرف جنود (قباقجي مصطفى) غير المنتظمة التي عضدته على عزل (السلطان سليم)، فأظهر البيرقدار الاكتفاء بما حصل ولم يكاشف أحدا بعزمه على إعادة (السلطان سليم) إلى عرش الخلافة العظمى وأشاع أنه عازم على العودة إلى (روستجق)، لكن في صبيحة ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣هـ[٢١١] ألقي القبض على (شلبي مصطفى باشا) الصدر الأعظم، وسار بجيوشه إلى السراي السلطانية، وطلب إرجاع (السلطان سليم الثالث) إلى الملك، فأمر (السلطان مصطفى) بقتله[٢١٢] وإلقاء جثته إلى الثائرين كي يكفوا عن الثورة لما يعلمون أن الذي يريدون إرجاعه قد دخل في خبر كان لكن أتى الأمر على عكس ما كان يؤمل، فقد زاد الثائرون هياجا ونادوا على الفور بعزل (السلطان مصطفى الرابع) وحجزه في نفس السراي التي كان محجوزا بها (السلطان سليم) فعزل بعد أن حكم ثلاثة عشر شهرا، وقتل في سرايه بعد ذلك بقليل، وأقيم بعده (محمود الثاني).

٢١١-٢٨ يونيو سنة ١٨٠٨م.

٢١٢- أي بقتل سليم الثالث.

السلطان محمود خان الثاني

ابن (السلطان عبد الحميد الأول)، ولد في ١٣ رمضان سنة ١١٩٩هـ[٢١٣]، وافتتح أعماله بأن قلد (مصطفى باشا) البيرقدار منصب الصدارة العظمى، ووكل إليه أمر تنظيم الانكشارية وإجبارهم على اتباع نظاماتهم القديمة المسنونة من عهد (السلطان سليمان القانوني) وأهملت شيئا فشيئا بعد ان انتقم البيرقدار ممن قاوموه عند إرجاع (السلطان سليم) وكانوا سبباً في قتله.

ثم لم يمض قليل حتى سار الانكشارية إلى فيلبيه وأظهروا التمرد والعصيان، فأرسل البيرقدار اثني عشر ألف مقاتل من جيوشه لمحاربتهم ولم يبق إلا أربعة آلاف والثلاثة آلاف القائد لهم (عبد الرحمن باشا). ولذلك انتهز الانكشارية هذه الفرصة وقاموا كرجل واحد في ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٣هـ[٢١٤] وساروا إلى سراي (السلطان مصطفى) بقصد إرجاعه إلى عرش الحكومة، فأعترضهم البيرقدار وقاومهم مقاومة عنيفة، ولما أحس بأن الضعف قد داخل جيوشه وخشي من فوز الثائرين وعزل (السلطان محمود) أمر بقتل (مصطفى الرابع) وإلقاء جثته للثائرين كما فعل (مصطفى الرابع) مع (السلطان سليم الثالث). فلما رأى الانكشارية جثة (السلطان مصطفى) زادوا هياجا وأضرموا النار في السراي الملوكية لكي يلجئوا البيرقدار على الفرار منها لكن فضّل الصدر الأعظم الموت على التسليم لهذه الفئة والانصياع لطلباتها، وبقى يدافع هو و من معه حتى مات حرقا.

وسارت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالي تتقدمها المدافع تقذف الصواعق على الانكشارية من كل صوب وحدب، ولما رأى الثائرون أن لا مناص لهم من الهلاك أضرموا النار في جميع جوانب المدينة، ولما كانت أغلب أماكنها من الخشب علا لهيب النيران وكاد الحريق يلتهمها بأجمعها، فاضطر السلطان للإذعان لطلبات الانكشارية حتى يمكنه إنقاذ

٢١٣- ٢٠ يوليو سنة ١٧٨٥م.

٢١٤- ١٦ نوفمبر سنة ١٨٠٨م.

المدينة من الدمار العاجل، مؤجلا إبطال هذه الفئة المفسدة إلى فرصة أخرى، وبذل جهده في إخماده النيران التي كادت تلتهم المدينة بأسرها لولم يتداركها (السلطان محمود) بحكمته، واستمر الانكشارية في ثورتهم وهيجانهم. واستولى الروس على مدائن (إسماعيل) و(سلستريه) و(روستجق) و(نيكوبلي) و(بازارجق) في سنتي ١٢٢٤هـ و١٢٢٥هـ[٢١٥].

الوهابيون ومذهبهم

الوهابيون قوم من العرب اتبعوا طريقة (عبد الوهاب)، وبعد أن درس (محمد عبد الوهاب) مذهب (أبي حنيفة) سافر إلى اصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم ثم عاد إلى بلاده في سنة ١١٧١هـ فأخذ يقرر مذهب (أبي حنيفة)[٢١٦] مدة، فأنشأ مذهبا مستقلا لتلامذته فأتبعوه وأكبوا عليه، وشاع أمره في نجد والإحساء والقطيف و[بعض] بلاد العرب مثل عمان وبنى عتبة من أرض اليمن. إلى أن قيض الله لهم عزيز مصر (محمد علي باشا) فأطفأ سراجهم في سنة ١٢٣٢هـ وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم.

ولما رأى (السلطان محمود) أنّه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام، الأمر الذي جعله الأوروبيون مطمح أنظارهم للتمكن من فصم عرى اتحادهم وامتلاك بلادهم، ولبعد ولايات الشام وبغداد عن مركز الفتنة كلف (محمد علي باشا) والي مصر ومؤسس عائلتها الخديوية بمحاربتها، واسترجاع مكة المشرفة والمدينة المنورة من أيدي زعمائها، وأرسل إليه فرمانا بذلك في ذي القعدة سنة ١٢٢٢هـ[٢١٧]. ولما كان إرسال الجيوش إلى بلاد العرب عن طريق البر أمرا متعسرا إن لم يكن مستحيلا لانتشار الوهابيين في جميع الطرق وقطعهم المواصلات، عزم (محمد علي باشا) على إرسالهم بطريق البحر الأحمر، فأمر بإنشاء السفن في السويس لنقل الجنود إلى فرضة ينبع ولما استعدت

٢١٥- سنتي ١٨٠٩م و ١٨١٠م.

٢١٦- الظاهر أنه لم يدرس المذهب الحنفي بل درس المذهب الحنبلي، والوهابيون يعملون بمذهب أحمد بن حنبل.

٢١٧- ديسمبر سنة ١٨٠٧م.

المراكب وجمعت الجيوش والكتائب أعد حفلة في القلعة في يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦هـ لتسليم ولده (طوسى باشا) الفرمان المؤذن بتقليده قيادة الجيش المزمع إرساله إلى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين.

وبعد ذلك سافر (طوسن باشا) بجيوشه إلى بلاد العرب وحارب الوهابيين واستخلص المدينة المنورة وكتب لوالده بذلك. ثم حصره الوهابيون في مدينة الطائف فسافر (محمد علي باشا) إلى مدينة مكة في ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨هـ[٢١٨] وقبض على (الشريف غالب) شريف مكة المكرمة، وأرسله إلى مصر وأقام مكانه (الشريف يحيى ابن سرور) واحتل عدة مراكز مهمة من مراكز الوهابيين، فتضعضع حالهم خصوصا وقد توفي زعيمهم (سعود) في ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩هـ[٢١٩]، فساد الأمن في طريق الحج وأتى الناس أفواجا لتأدية فريضة الحج في ذي الحجة سنة ١٢٢٩هـ، وحج (محمد علي باشا) وجميع من معه، ثم عاد إلى مصر فوصلها في ١٥ رجب سنة ١٢٣٠هـ[٢٢٠].

وقبل عودته كان قد سار (طوسن باشا) إلى بلاد نجد لمهاجمة الوهابيين في مدينة (الدرعية) عاصمة زعيمهم، فاحتل مدينة (الرس) الواقعة على مقربة من الدرعية. ثم راسله (عبد الله بن سعود) الذي تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه وأرسل إليه رسولا يدعى (الشيخ أحمد الحنبلي) يطلب منه الكف عن القتال والخضوع لأمير المؤمنين وترك (دعوتهم)، فأجابهم (طوسن باشا) بأنه لا يمكنه إجابة ملتمسه الا بعد أخذ رأي والده، واتفقا على مهادنة عشرين يوما ريثما يخابر (طوسن باشا) والده.عند ذلك أتى أليه خبر عودة والده إلى مصر، فأخذ على نفسه إتمام الصلح وإخبار والده بعد إتمامه. فاتفق مع (عبد الله بن سعود الوهابي) على أن يحتل (طوسن باشا) بجيوشه مدينة الدرعية، ويرد الوهابيون ما أخذوه من المجوهرات والنفائس من الحجرة الشريفة النبوية، خصوصا الكوكب الدري الذي زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطا من الماس. وكتب لوالده بذلك فأتى إليه الرد بتكليف (عبد الله بن سعود) بالتوجه إلى الآستانة وان لم يقبل يرسل إليه جيشا جديدا لمحاربته. وفي هذه الأثناء

٢١٨- ٢٦ أغسطس سنة ١٨١٢م.

٢١٩- ١٠ أبريل سنة ١٨١٤م.

٢٢٠-٢٣ يونيو سنة ١٨١٥م.

جمع (طوسن باشا) خبر تمرد الجنود على والده بالعاصمة ونهبهم المدينة، فرجع هو أيضا إلى العاصمة منيطا قيادة جيوشه لأحد من كان معه من القواد، ووصل هو إلى القاهرة في غاية ذي القعدة سنة ١٢٣٠هـ[٢٢١].

ثم سافر (عبد الله بن سعود) إلى الآستانة من طريق مصر، فوصل القاهرة في يوم الاثنين ١٧محرم سنة ١٢٣٤هـ[٢٢٢]، و بعد أن قابل (محمد علي باشا) بسراي شبرا سافر قاصدا الآستانة في ١٩ من الشهر المذكور، وقتل بالقسطنطينية بمجرد وصوله. ولما هدأت الحال في بلاد الحجاز ونجد وضرب الأمن أطنابه بها واستؤصلت شأفة الوهابيين منها عاد (إبراهيم باشا) إلى مصر.

ثورة اليونان وطلبها الاستقلال

إن الدولة كانت كلما فتحت إقليما اكتفت من أهله بالخراج غير متعرضة لهم في دينهم أو لغتهم أو عوائدهم، وكان من مضار هذه الطريقة ان تحتفظ بها كل أمة لغتها ورابطها وعصبيتها، حتى إذا ساعدتها الظروف نشطت من عقالها وقامت من رقدتها طالبة نصيبها من شمس الاستقلال المنعشة، فلما قامت الثورة الفرنساوية على دعائم الحرية والمساواة والإخاء وانتشرت مبادئها في جميع أنحاء أوروبا التي وطئها (نابليون) بجيوشه، تعدت منها إلى غيرها ووصلت فصائلها إلى بلاد اليونان، فوجدت من أفكار وألباب سكانها مغرسا طيبا فنمت وأينعت وامتدت فروعها إلى سهلها وجبلها واجتمع تحت ظلها الوارف زعماء الأمة اليونانية، لكنهم أيقنوا أنهم لا يقوون على طلب الاستقلال إلا إذا كان من أبنائهم شبان متعلمون يبثون المبادئ الجديدة بين جميع طبقات الأمة، فيعلمون أن لهم حقوقا يطالبون بها وواجبات يطالبهم الغير بها. ولذلك عمد أغنياؤهم إلى إرسال أولادهم إلى مدارس الممالك الأوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف، وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة حريتها في المستقبل. ثم ألفوا عدة جمعيات لنشر العلم بها بين أفراد الأمة وبث روح الوطنية بينهم، وشكلوا جمعيات أخرى

٢٢١-٣ نوفمبر سنة ١٨١٥م.

٢٢٢-١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨م.

سياسية محضة، وجعلوا مراكزها في الروسيا والنمسا، وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة (هيتيري)[٢٢٣].

وانتهز اليونانيون الفرصة بانشغال الدولة مع والي يانيا (علي باشا) لنشر لواء العصيان ومقاتلة الجنود العثمانية المحتلة لحصونهم وقلاعهم فوجهت الدولة (خورشيد باشا) إلى بلاد اليونان لاخضاعها فتغلبوا عليه.

ولما رأى (السلطان محمود) ما ألم بجيوشه في هذه الحروب، وثبات اليونانيين أمام الجيوش العثمانية، أصدر فرماناً بتاريخ ٥ رجب ١٢٢٩هـ[٢٢٤]بتعيين (محمد علي باشا) واليا على جزيرة كريد وإقليم موره . وهما بؤرتا هذه الثورة . وفي الحال أصدر(محمد علي باشا) أوامره باستعداد سبعة عشر ألف جندي كلهم مصريون من المشاة للسفر، وعدد من الفرسان والمدفعية بقيادة (ابراهيم باشا). فأبحرت هذه الإرسالية من الإسكندرية في ١٩ ذي القعدة ١٢٢٩هـ[٢٢٥]، وبينما يستعد (إبراهيم باشا) لفتح ما بقي من بلاد اليونان إذ تدخلت الدول بين الباب العالي ومتبوعيه بحجة حماية اليونانيين في الظاهر، ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم بلاد الدولة بينهم في الباطن. وبيان هذا التدخل ان الدولة لامت روسيا أكثر من مرة على مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجئ منهم إلى بلادها، وهي لا تصغي لهذا اللوم ولا تنصت للحق، بل استمرت على مساعدتهم طمعا في نوال بغيها الأصلية . وهي احتلالها الآستانة وجعلها مركزا للديانة (الأرثوذكسية) كما أن مدينة (رومة) مركزا للديانة الكاثوليكية . ثم استمرت المخابرات بين الدولتين مدة بدون فائدة لرغبة روسيا التدخل بين التابع والمتبوع، وعدم قبول الباب العالي أي تدخل أجنبي في شؤونه الداخلية بين رعاياه. ولما توفي القيصر (اسكندر الأول) في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٤١هـ[٢٢٦] وتولى بعده (نقولا الأول) واهتم بمسألة اليونان متبعا خطة سلفه السياسية وباتحاده مع إنكلترا التي كان قصدها منع الحرب بين الدولتين اضطر الباب العالي إلى التصديق على معاهدة (آق كرمان) في ٢٨صفر سنة

٢٢٣- هيتيري: كلمة يونانية معناها جمعية أخويّة.

٢٢٤- ١٨٢٤/٣/٦م.

٢٢٥- ١٨٢٤ /٧/١٦م.

٢٢٦-أول ديسمبر سنة ١٨٢٥م.

١٢٤٢هـ[٢٢٧] وملخصها:

(أن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود، والمرور من البوغازين بدون أن يكون للدولة وجه في تفتيش سفنها، وأن تنتخب حكام ولايتي الأفلاق والبغدان بمعرفة الأعيان لمدة سبع سنوات مع عدم جواز عزلهما أو أحدهما إلا بإقرار روسيا، وأن تكون ولاية الصرب مستقلة تقريباً، وأن لا تحتل العساكر التركية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى). ولم يذكر بهذه المعاهدة شيء عن اليونان لإيجاد سبب للإشكال في المستقبل، بل اتفقت روسيا وإنكلترا على استعمال كل نفوذهما لوضع حد للحروب المستعمرة بها ولو كره الباب العالي ووافقتهما دول النمسا والبروسيا وفرنسا، مما انجر بالنهاية إلى استقلال اليونان.

وأخذ الغربيون ينظمون جيوشهم ويرتبون أمورهم ولما تحقق (السلطان محمود) أفضلية النظامات العسكرية المستعملة في جيوش أوروبا، وسمع بذلك أهتم بالنظام الجندية على الطرز الغربي، وابتدئ في تعليم الضباط بمعرفة من تعين من ضباط الإفرنج بصفة معلمين.

إلغاء طائفة الانكشارية

ولما كان يوم ٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٠هـ[٢٢٨] وتعرض الانكشارية للجند وقت التمرين أصدر السلطان أمره بمعاقبة كل متعرض لهم بالقتل. ولذا تجمع المتعصبون في مساء ذلك اليوم وتأمروا على العصيان.

وكان السلطان في سراي (بشكطاش) فحضر على الفور سرايته وجمع العلماء وأخبرهم بما ينويه الانكشارية، فاستقبحوا عملهم وشجعوه على المقاومة، فاستدعى الآيات الطوبجية التي نظمها نوعا عقب توليته واستعد لقتال الثائرين، وعزم على عدم التساهل معهم خوفا من تفاقم شرورهم واسترسالهم في التمرد والطغيان.

وفي صباح ٩ ذي القعدة[٢٢٩] أخرج السلطان العلم النبوي الشريف، وسار بجنود

٢٢٧-١ أكتبر سنة ١٨٢٦م.

٢٢٨-٢٤ يونيو سنة ١٨٢٦م.

٢٢٩-٢٥ يونيو.

الطوبجية يتقدمه العلم إلى ساحة (آت ميداني)، حيث كان الثائرون مجتمعين في هرج ومرج لا مزيد عليهما، وتبعه كثير من العلماء والطلبة. ولم يمض قليل حتى أحاطت الطوبجية بالميدان واحتلت جميع المرتفعات المشرفة عليه، وسلطت مدافعها على الانكشارية من كل صوب، فخرج جميع الانكشارية وتجمهروا قاصدين الهجوم على المدافع للاستيلاء عليها، فقذفت عليهم من صيب قللها ما أوقعهم في الفشل وأيقنوا معه أن لا طاقة لهم على مقاومتها، فعكفوا إلى ثكناتهم طالبين النجاة لكن أنى لهم ذلك وقد سلطت أفواه المدافع عليها فهدمتها وأشعلت فيها النيران حتى دمرتها على من التجأ إليها، وبذلك انتهت هذه الفتنة المريعة.

وفي اليوم التالي صدر فرمان سلطاني بإبطال فئتهم كلية وملابسها واصطلاحاتها واسمها من جميع الممالك المحروسة، ونودي بذلك في الشوارع، وصدرت الأوامر إلى جميع الولايات بالتفتيش على كل من بقي منهم وإعدامه أو نفيه إلى أطراف البلاد حتى لا تبقى منها باقية.

ومن ثم أخذ السلطان في ترتيب وتنظيم الجيوش بهمة لم يمسسها ملال، وعين لإدخال هذه التنظيمات لجنة من أكابر الوزراء، وقلد (حسين باشا) الذي كانت له اليد الطولى في إبادة الانكشارية قائدا عاما لهم.

ولما رأى أن جماعة البكطاشية محازبة للانكشارية أمر بإلغائها وإبطال جميع تكاياها، فألغيت وشتت أعضاؤها في أطراف الدولة حتى لا يخشى من تجمعهم بالآستانة، وقتل ثلاثة من رؤسائها النافذي الكلمة بناء على فتوى شرعية. ومن جهة أخرى أخذ في تغيير العوائد القديمة واتباع المستحسن من عوائد أوروبا، فاستبدل العمامة (بالطربوش الرومي)، وتزيّ بالزي الأوروبي، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي في العسكرية والمدنية، وأسس وساما دعاه (وسام الافتخار).

وأخيرا تجول بذاته في ممالكه بأوروبا ليستطلع أحوالها، ويقف على حقائق الأمور وشكاوى الأهالي، وبالاختصار فانه سار سير من يريد مجاراة أوروبا في نظاماتها.

احتلال فرنسا لجزائر الغرب

وفي أواسط سنة ١٢٤٥هـ[٢٣٠] نفذت فرنسا ما كانت تنويه من مدة ضد ولاية الجزائر، ليكون لها مركز حربي بشمال أفريقيا حتى لا تكون إنكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط باحتلالها معاقل جبل طارق وجزيرة مالطة. واتخذت لذلك سبيلاً وقوع الخلاف بينها وبين عامل الدولة عليها المدعو (حسين باي) وقرروا في مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه في ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥هـ[٢٣١] وجوب الاستيلاء على هذا الإقليم. ثم أرسل إليها جيشا مؤلفا من نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل، وعمارة بحرية مؤلفة من مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف جندي بحري. ولما علمت إنكلترا بذلك خشيت على نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجت ضد هذا المشروع.

ولما لم يفد احتجاجها شيئا أوعزت إلى الباب العالي أن يأمر عامله على الجزائر بالتساهل مع فرنسا وتقديم ما تطلبه من الترضية والتعويضات، فأرسل الباب العالي مندوبا من طرفه لتبليغ هذه التعليمات إلى عامل الجزائر .

وفي ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥هـ[٢٣٢] نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجزائر، وانتشب القتال بين الفريقين في (١٩يونيو). وبعد محاربة شديدة فاز الفرنسيون بالغلبة. وفي ١٤محرم سنة ١٢٤٦هـ[٢٣٣] احتلوا القلعة المسماة (سلطانية قلعة سي) الواقعة أمام مدينة الجزائر. وفي تلوه دخلت الجيوش مدينة الجزائر نفسها بعد خروج (حسين باي) منها، وأعلنت فرنسا امتلاكها لها. وبعد ذلك أخذت ترسل الجيوش تباعا إلى الجزائر لفتحها، وما زال الأهالي يقاومونها تحت إمرة الوطني الشهير (السيد عبد القادر الجزائري)، الذي دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة وسلم نفسه في ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣هـ[٢٣٤]. ولم تزل الأهالي غير راضية عن الاحتلال الفرنساوي حتى الان، ولم تدع فرصة للتخلص منه إلا اتخذتها، لكن لم

٢٣٠- سنة ١٨٣٠م.

٢٣١-٧ فبراير سنة ١٨٣٠م.

٢٣٢-١٢ يونيو سنة ١٨٣٠م.

٢٣٣-٥ يوليو.

٢٣٤-٨ يوليو سنة ١٨٤٧م.

تقو حتى اليوم على التخلص من ربقة الأجنبي[٢٣٥] .

ثم إن (محمد علي باشا) حارب والي الشام مرتين وحارب مع نفس العثمانيين. وتوفي (السلطان محمود الثاني) في يوم ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥هـ[٢٣٦] فجأة بدون أن يعلم بتقهقر الجيش العثماني أمام جيش (محمد علي باشا) والي مصر لعدم وجود الأسلاك البرقية في هذا العهد، بالغاً من العمر ٥٥ سنة، وتولى بعده ابنه (عبد المجيد)، وكانت مدة خلافة (السلطان محمود) إحدى وثلاثين سنة وعشرة شهور ومات عن أربع وخمسين سنة تقريباً.

٢٣٥- مساحة الجزائر ٢٣٨١٧٤١ كم، وأشهر مدنها (الجزائر) العاصمة و(وهران) و(قسنطينة) و(عنابة) و(صطيف)، وقد تعاقب على هذه البلاد كثير من الأقوام من فنيقيين ونوميديين ورومان وفندال وعرب وأتراك . ثم غلب عليها الأفرنسيون سنة ١٨٣٠م ولم يحكموها مستعمرة بل جعلوها جزءا من فرنسا وأخيرا استقلت سنة ١٩٦٢م وأصبحت جمهورية.

٢٣٦-٢ يوليو سنة ١٨٣٩م.

السلطان عبد المجيد خان

وكانت ولادة (السلطان عبد المجيد) في ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧هـ[٢٣٧]، وكان إذ ذاك سنّه ١٧، فتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش (محمد علي باشا) بنصيبين، واحتلال جيوشه لمدائن عين تاب وقيصرية وملطية.

ومما زاد أحوال الدولة ارتباكا وشغل الخواطر وأوروبا، أن (أحمد باشا) القبودان العام للدونانمة التركية، خرج بجميع مراكبه الحربية وأتى بها إلى ثغر الإسكندرية، وسلمها إلى (محمد علي باشا) في ٢ ج١ سنة ١٢٥٥هـ[٢٣٨]. وكان فعل (أحمد باشا القبودان) مسبباً عن توجيه منصب الصدارة العظمى إلى (خسرو باشا) الذي كان قد سبق تعيينه واليا على مصر، وخرج منها بناء على رغبة الأهالي في تعيين (محمد علي باشا) عليها، وخوفه من الإيقاع به بسبب ما كان بينه وبين (محمد على باشا) من علائق الارتباط والمحبة.

ثم أن الغربيين اتفقوا مع العثمانيين ضد والي مصر (محمد علي باشا)، وفي يوم ١٤ رجب أنزلت العساكر إلى البر في نقطة تبعد نحو ستة أميال في شمال بيروت، ولم يتمكن (إبراهيم باشا) ولد (محمد علي) من منعهم، لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية.

وفي ظهر ذلك اليوم بعد نزول هذه العساكر إلى البر أرسل إلى (سليمان باشا) بلاغ من (الأميرالين) الإنكليزي والنمساوي بأن يخلي مدينة بيروت حالا فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كي يتداول مع (إبراهيم باشا) في هذا الأمر الجلل، فلم يقبل طلبه وابتدأ في إطلاق المدافع على المدينة، واستمر إطلاقها حتى المساء، وابتدأ أيضاً في اليوم التالي قبل الفجر ولم تقطع إلا بعد هدم أو حرق أغلب المدينة، وأحرقت كذلك كل الثغور الشامية قصد استخلاصها من (محمد علي باشا) وإرجاعها إلى الدولة كما كانت.

٢٣٧-٦ مايو سنة ١٨٢٢م.

٢٣٨-١٤ يوليو سنة ١٨٣٩م.

إن المراكب الإنكليزية والعساكر المختلطة التي أنزلت إلى البر في عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر وإخراج المصريين منها، حتى لم ير (محمد على باشا) بدّاً من الإذعان إلى مطالب أوروبا، وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة، فأصدر أوامره إلى ولده (إبراهيم باشا) بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة، وباستدعاء الجنود المعسكرة في حدود الشام والانجلاء عنها، مع اتخاذ أنواع الاحتراس الكلي من العرب وسكان الجبل. فبلغ (إبراهيم باشا) هذه الأوامر إلى القواد جميعهم، وأخذ الجنود في الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الذي قادهم غير مرة إلى النصر والظفر. وبعد ذلك قسم الجيش عدة فرق كل منها تحت إمرة أحد القوّاد وسار الكل راجعين إلى مصر تاركين البلاد التي سفكوا فيها دماءهم وتركوا فيها قبور إخوانهم.

وأما (إبراهيم باشا) وفرقته فلم يمكنهم العودة إلى القاهرة من طريق صحراء العريش، لشدة من لاقوه أثناء مرورهم في فلسطين من معارضة العرب (أي البدو) لهم وسدهم الطريق عليهم واحتلالهم جميع القناطر المبنية على الأنهر، حتى اضطر لمحاربتهم في كل يوم بل وفي كل ساعة.

وأخيرا وصل مدينة غزة بعد أن قتل في الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أرادوا الرجوع إلى وطنهم مع عائلاتهم، فلما وصل غزة كتب لوالده إشعارا بقدومه وطلب منه إرسال ما يلزم له من المراكب لنقل فرقته إلى الإسكندرية وما يلزم لمؤونتهم وملبسهم.

إثارة الطائفية

وبمجرد إخلاء الجيوش المصرية لبلاد الشام وجبال لبنان، وعدم شعور سكانها بسطوة (إبراهيم باشا) وبطشه، زادت الدسائس الأجنبية لإضرام نار الشقاق وبذر الفتن الداخلية توصلا لغاياتهم الشخصية، وكانت فرنسا مساعدة للمارونية الكاثوليك، وإنكلترا معضدة للدروز ضدهم، لتلجئهم على ترك المذهب الكاثوليكي واعتناق المذهب البروتستانتي، فيدخلوا بذلك تحت حمايتها الفعلية، ولم يعد لفرنسا حجة لحمايتهم لسبب مذهبي. وظن كل فريق من هؤلاء التعساء أن الدولة التي تغرره تود صلاح حاله وترقيه في المدنية، ولا تفقه لدخائل هذه السياسة التي لا يتأخر أصحابها أمام إهراق دماء الأبرياء، توصلا لمآربهم.

وبهذه الدسائس ساد الهياج في جميع أنحاء لبنان، وظهر ما تكنه صدور سكانه من الأحقاد الجنسية والدينية، حتى تعدى الدروز على المارونية في سنة ١٢٥٧هـ[٢٣٩]، ودخلوا دير القمر، وارتكبوا فيه ما تقشعر منه الأبدان، من النهب والسلب وقتل النساء والولدان وسبي الحرائر، ولولا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة.

وحدثت في مدينة جدة نازلة أكثر أهمية من تلك، وهي قيام المسلمين بها على المسيحيين في يوليو ١٢٧٤هـ[٢٤٠] وقتلهم بعضهم وإصابة قنصل فرنسا وكاتبه إصابة شديدة وقتل زوجته، ومما جعل باباً للأوروبيين لرمينا بالتعصب الديني، فلما علم (فؤاد باشا) بهذه الحادثة لم يشعها بل أرسل من يدعى (إسماعيل باشا) ببعض الجند لتحقيقها ومجازاة القاتلين بالإعدام بدون طلب تصريح من الآستانة، كما جرت به العادة، لكن قبل وصول هذا المندوب علمت الدول بهذه المذبحة، وأرسلت فرنسا وإنكلترا لائحة للباب العالي بالاشتراك يخبرانه بها أنهما أرسلتا مراكبهما إليها بتعليمات شديدة، فأجابهم (فؤاد باشا) بأن الدولة لم تهمل واجبها بل رخصت لـ (إسماعيل باشا) بإجراء اللازم، وأن الدولة مستعدة لتقدير التعويضات الواجب دفعها لمن لحقهم ضرر بالاتحاد مع من تعينهم الدولتان لهذا الغرض.

٢٣٩-سنة ١٨٤١م.

٢٤٠- سنة ١٨٥٨م.

إطلاق الإنكليز المدافع على جدة

وفي هذه الأثناء أتى (نامق باشا) والي مكة إلى جدة وقبض على المجرمين وحاكمهم، فحكم على كثير منهم بالإعدام، لكن لم يمكن تنفيذ هذه الأحكام إلا بعد استئذان الدولة. وفي غضون محاكمتهم وصلت إلى ميناء جدة سفينة حربية إنكليزية اسمها (سيكلوب) وطلب ربانها من (نامق باشا) تنفيذ الحكم فورا وأمهله أربعة وعشرين ساعة وإن لم يعدم المحكوم عليهم يطلق مدافعه على المدينة. ولما أجابه (نامق باشا) بعدم إمكانه إجابة طلبه سلط مدافعه على هذه المدينة واستمر إطلاقه عليها نحو عشرين ساعة ولولا وصول السفينة المقلة (إسماعيل باشا) المندوب العثماني لدمرت المدينة عن آخرها فإنه لما وصل هذا المندوب أوقف ضرب النار ونزل معه العساكر العثمانية والإنكليزية وأمر بشنق المحكوم عليهم بالإعدام فشنقوا وانتهت هذه المسألة ورجعت العساكر الإنجليزية إلى سفينتهما بدون أن يجدوا علة للبقاء.

حادثة الشام واحتلال فرنسا لها

ووجه أرباب الغايات مساعيهم إلى بلاد الشام لاستعدادها لقبول بذور الفساد أكثر من باقي الولايات بسبب تعدد الجنسيات واختلافهم في الدين والمشرب ووجود العداوة بينهم خصوصا بين المارونية والدروز، فقامت بينهم أسباب الشقاق ودواعي الخلف إلى أن تعدى المارونية بالقتل على الدروز في أواخر سنة ١٢٧٥هـ[٢٤١] وقام الدروز للأخذ بالثار، ثم امتدت الفتنة إلى جميع أنحاء الشام وكثر القتل والنهب وحصلت عدة مذابح في طرابلس وصيدا واللاذقية وزحلة ودير القمر ومنها إلى مدينة دمشق الشام.

فعرضت فرنسا على الدول إنها مستعدة لإرسال جيوشها إلى بلاد الشام لقمع الفتنة ومجازاة مثيريها وحماية المارونية، فلم تقبل الدول هذا الاقتراح بادئ الرأي خوفا من عدم

٢٤١- سنة ١٨٥٩م.

خروج فرنسا من الشام لو احتلتها عسكريا وضحت أموالها ورجالها.

ولما حصلت مذبحة دمشق التي قتل فيها نحو ستة آلاف نسمة ـ على ما يقولون ـ أرسلت جميع الدول إلى الباب العالي تهدده بالتدخل إن لم يضع حدا لهذه الفتن، لكن بلاغاتهم لم تكن اشتراكية لعدم اتحادهم، فجمع (فؤاد باشا) جميع الوزراء واظهر لهم ضرورة تعزيز الجيش العثماني بهذه البلاد وإخماد الثورة قبل أن تتفق الدول على التدخل عسكريا، فتقرر رأيه بالإجماع وانتدب هو لقيادة الجيوش بها ومجازاة كل من تظهر إدانته. فسافر على جناح السرعة ووصل إلى بيروت في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٧٦هـ[٢٤٢] ومنها قصد مدينة دمشق في خمسة آلاف جندي وشكل مجلسا حربيا، وحاكم رؤساء الفتنة بكل صرامة وشنق كثيرا ممن ظهرت لهم يد عاملة فيها سواء كان من الدروز أو المسيحيين أو المسلمين أو من نفس كبار مستخدمي الحكومة وبذل همته في إعادة الأمن إلى البلاد.

وفي أثناء ذلك اتفقت الدول على أن ترسل فرنسا إلى الشام ستة آلاف مقاتل لمساعدة الجيش العثماني على إعادة السكينة لو عجز عن تأدية هذه المهمة، وفي ٢٢ محرم سنة ١٢٧٧هـ[٢٤٣] نزلت الجنود الفرنساوية إلى بيروت تحت قيادة الجنرال (دوبول). وفي أثناء ذلك انعقدت بمدينة بيروت لجنة أوروبية مشكلة من مندوبين معينين من قبل الدول الموقعة على معاهدة باريس وبعد مداولات طويلة اتفقوا مع (فؤاد باشا) على أن يعطوا للمسيحيين الذين حرقت دورهم مبلغ خمسة وسبعين مليون قرش[٢٤٤] بصفة تعويض، وان يمنح أهالي الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة يكون حاكمها مسيحي المذهب، وأن يكون للباب العالي حامية من ثلاثمائة جندي تقيم في حصن على الطريق الموصل من دمشق إلى بيروت.

ثم عين بالإجماع من يدعى (داود أفندي) الأرمني الجنس أميرا للجبل لمدة ثلاث سنوات لا يمكن عزله الا باتفاق الدول. وبعد خروج الجيوش الفرنساوية من بيروت بعشرين يوما توفي (السلطان عبد المجيد خان) في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ[٢٤٥] وعمره أربعون سنة وكسور،

٢٤٢- ١٧ يوليو سنة ١٨٦٠م.

٢٤٣- ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٠م.

٢٤٤- أي سبعمائة وخمسون ألف ليرة ذهبية.

٢٤٥- ٦يونيو سنة ١٨٦١م.

ومدة حكمه ٢٢ سنة ونصف، وفي يوم موته بويع بالخلافة لأخيه.

السلطان عبد العزيزخان

المولود في ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥هـ[٢٤٦] وفي ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ[٢٤٧] توجه في موكب حافل إلى ضريح سيدي (أبي أيوب الأنصاري)، وهناك تقلد السيف السلطاني على ما جرت به العادة، ومنه سار لزيارة قبر(السلطان الغازي محمد الثاني) فاتح الآستانة، ثم قبر والده (السلطان محمود الثاني).

وكانت فاتحة أعماله أنه أقر الوزراء في مراكزهم ما عدا ناظر الجهادية (رضا باشا) فإنه أبدل بـ (نامق باشا).

ولما تولى (السلطان عبد العزيز) منصب الخلافة العظمى أبقى (محمد أمين عالي باشا) في الصدارة العظمى، لكن لم يلبث أن أقاله تبعا للظروف، في جمادى الأول سنة ١٢٧٨هـ[٢٤٨]، وعين (فؤاد باشا) صدرا أعظم، ولم تدم صدارته الأولى بل فصل عنها. وبعد بعض تقلبات أعيد إليها بعد بضعة شهور فبذل جهده في إصلاح المالية، التي كانت على شفا الإفلاس بسبب الديون الكثيرة التي اقترضتها الدولة في أيام (السلطان محمود الثاني) و(عبد المجيد) بسبب إنشاء القوائم، التي هي عبارة عن أوراق صغيرة ملونة بألوان مختلفة كل منها بقيمة معلومة من النقود. ولبيان سوء الأحوال المالية نقول: إنه لما انتشبت حرب استقلال اليونان ودمرت الدول دونانماتها ظلما وتعصبا التزمت الدولة لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها، إلى اصدار القوائم المالية، فأصدرت أولا في سنة ١٢٤٥هـ[٢٤٩] أوراقا بمبلغ اثنين وثلاثين ألف كيسة بفائدة ثمانية في المائة سنويا تستهلك في ثماني سنوات، ثم بسبب حروب الشام بين مصر والدولة ما تيسر لها استهلاك هذا القدر بل أصدرت أوراقا بلا فائدة،

٢٤٦-٨ فبراير سنة ١٨٣٠م.

٢٤٧-٧ يونيه سنة ١٨٦١م.

٢٤٨-نوفمبر سنة ١٨٦١م.

٢٤٩- سنة ١٨٣٠م.

وامتنعت عن دفع الفائدة عن الأوراق الأصلية، وتوالى بعد ذلك إصدار الأوراق في كل سنة تقريباً.

ولما تربع (السلطان عبد المجيد) في دست الخلافة أراد سحب القوائم، إلا ان حرب القرم وما جرته على الدولة من المصاريف الباهظة منعه عن تتميم مشروعة واضطرته الأحوال إلى الاستدانة من أوروبا للقيام بأعباء الحرب، ثم استغرقت المصاريف كل القرض فأصدر قوائم جديدة. واستمر الحال على هذا المنوال، وكل سنة تزداد الديون الخارجية والقوائم الداخلية حتى ولي (فؤاد باشا) منصب الصدارة، فاقنع جلالة (السلطان عبد العزيز) بضرورة إبطال القوائم وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة، فأصدر السلطان فرمانا عاليا في ٢٠ رجب سنة ١٢٧٨هـ[٢٥٠] لـ (فؤاد باشا) بإصلاح المالية وإعمال ميزانية سنوية لإيرادات ومصروفات الدولة. ثم في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٧٨هـ[٢٥١] أصدر إليه فرمانا آخر أهم ما جاء به سحب القوائم بأجمعها وتصفية جميع الديون السائرة ودفع بدل القوائم نقودا ذهبية أو فضية بقيمة أربعين في المائة وسهاما جديدة بقيمة الستين في المائة الباقية.

واقترضت الدولة لإتمام هذه العملية المالية ثمانية ملايين جنيها انكليزيا، ولما لم تف اقترضت ثمانية أخرى بواسطة البنك العثماني الذي تأسس في هذه الغضون، ولكثرة المصاريف في الإصلاحات الداخلية وغيرها كثرت الديون وتراكمت وصار دفع الكوبونات (الفوائد) حملا ثقيلا على عاتق ميزانية الدولة، فأمر السلطان بالاقتصاد من جميع فروع الميزانية حتى من المبالغ المخصصة لسرايته الخاصة. وبذلك أمكن ناظر المالية (مصطفى فاضل باشا) القيام بدفع الفوائد. وأخيرا لعدم موافقة ناظر المالية لـ (فؤاد باشا) على مشروعاته المالية عزل (مصطفى باشا فاضل) وعين (كاني باشا) مكانه، فقدم هذا الأخير بالاتحاد مع (فؤاد باشا) تقريرا إلى السلطان بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٢٨١هـ[٢٥٢] قاضيا بإنشاء هذا التقرير وسجل بمقتضاه أربعون مليون جنيها عثمانيا، لكن لم يأت زمن دفع الكوبون الا والخزينة ناضبة لا يوجد بها ما يكفي لدفعه فاضطرت الدولة إلى إصدار سهام جديدة بواسطة البنك

١- ٢١ يناير سنة ١٨٦٢م.

٢٥١-١٧ يونيو سنة ١٨٦٢م.

٢٥٢-١٩ مارس سنة ١٨٦٥م.

العثماني بمدينتي باريس ولوندره، فأصدرها البنك في شعبان سنة ١٢٨٢هـ[٢٥٣] بفائدة ١٢ في المائة. ولضعف الثقة بمالية الدولة لم يقدم أصحاب الأموال على الاكتتاب ولم يتحصل من هذه السهام الجديدة إلا ما يكفي لدفع الكوبون المستحق فقط.

ولاستمرار هذا الضيق وعدم وجود النقود الكافية للمصروفات الضرورية سعى به أرباب الغايات لدى جلالة السلطان وأفهموه أن هذا العسر ناشئ عن سوء تدبير (فؤاد باشا) للمالية فعزله واستبدله بـ (محمد رشدي باشا) وأصدر له فرمانا بذلك بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٣هـ[٢٥٤] فسعى مرتين في إصدار قرض لتسوية الديون السائرة ولم ينجح، وأخيرا اتفق مع البنك العثماني على أن يدفع البنك فوائد الديون المقيدة في السجل العمومي كل ثلاثة أشهر، وتتنازل له الدولة لوفائها عن بعض إيرادات معينة، وبذلك أمكن دفع الكوبونات أولا فأولا واتقى شر تأخير دفعها الذي يعد في عرف المالية إفلاسا، وصارت الدولة تقترض ما يلزمها من البنوك بدون إصدار أسهم عمومية.

بعد أن استقرت أحوال الدولة المالية أو كادت، تحركت الفتن السياسة أولا بسبب عدم قبول حكومة الصرب باتفاق ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٩هـ[٢٥٥] القاضي ببقاء الجيوش العثمانية محتلة لأربع قلاع بداخل بلاد الصرب كما سبق ذكر ذلك، وطلبها من الدول بكل إلحاح إبطال هذا الشرط وانجلاء عساكر الدولة عنها قطعيا، فلم تقبل الدولة بل هددت الصرب بالحرب لو مست عساكرها المحتلين بسوء.. ولكن اشتعال نار الفتن بكريد أشغلها عن إخضاعها وقبلت أخيرا في ذي القعدة سنة ١٢٨٣هـ[٢٥٦] سحب عساكرها فكمل استقلال الصرب ولم يبق على أميرها إلا لقب ملك.

ومثل ذلك حصل بخصوص الاعتراف بانتخاب (البرنس شارل دي هوهنزولرن البروسي) فإن الدولة بعد أن جمعت جيشا جرارا على حدو رومانيا لفسخ الانتخاب وإلزام الأهالي باتباع نصوص المعاهدات اضطرتها ثورة كريد إلى العدول عن هذه الخطة والاعتراف بانتخابه.

٢٥٣-ديسمبر سنة ١٨٦٥م.

٢٥٤-٥ يونيو سنة ١٨٦٦م.

٢٥٥-٦ سبتمبر سنة ١٨٦٢م.

٢٥٦-مارس سنة ١٨٦٧م.

ولقد أصابت الدولة في ذلك لأن وجود مثل هذه الإمارة في طريق روسيا يفيدها وقت الحرب خصوصا إذا لم يكن أميرها مصافيا لروسيا ولا متحدا معها في المذهب والجنس . أما الإصلاحات التي أجريت في داخلية الممالك المحروسة في خلافته، فمنها: القانون القاضي بجواز انتقال الأراضي الميرية (الخراجية) والموقوفة لورثة صاحب المنفعة الصادر في ١٧ محرم سنة ١٢٨٤هـ[٢٥٧] وهو يشبه لائحة الأطيان السعيدية المصرية. والقوانين التي أجازت للأجانب امتلاك العقارات وكافة الحقوق العينية والتصرف فيها بجميع الممالك المحروسة بعد أن كانت ممنوعة عنهم كلية، وذلك في سنة ١٢٨٥هـ[٢٥٨]، ومنها وضع مجلة الأحكام الشرعية ليعمل بها في المحاكم النظامية .

وحرر في المادة الثانية والتسعين بعد الثلاثمائة من هذه المجلة:

(فإذا أمر إمام المسلمين بتخصيص العمل بقول من المسائل المجتهد فيها تعين ووجب العمل بقوله، وإذا صارت هذه المعروضات المبسوطة لدى حضرتكم قرينة التصويب يجرى توشيح أعلى المجلة الملفوفة بالخط الشريف الهمايوني والأمر لولي الأمر).

وفي سنة ١٢٨٣هـ غيرت طريقة التوارث في الخديوية المصرية وحصرت في ذرية (إسماعيل باشا)، ثم في سنة ١٢٨٩هـ أعطيت له عدة امتيازات جديدة، وفي ١٣ ربيع الأخر سنة ١٢٩٠هـ[٢٥٩] أرسل إليه فرماناً جديداً شاملاً لجميع امتيازات مصر وكيفية التوارث في منصب الخديوية. ثم وهب جلالة السلطان الأعظم إلى جناب خديو مصر مدينة (زيلع) وملحقاتها التابعة للواء الحديدة وأصدر له فرمانا بذلك.

مسألة قنال السويس

وكان يظن قبلا أن حفر خليج يصل بين البحرين (الأحمر والأبيض) مباشرة أمر مستحيل بسبب ادعاء بعض العلماء أن سطح مياه البحر الأحمر أعلى بنحو عشرة أمتار

٢٥٧-٢١ مايو ١٨٦٧م.

٢٥٨-الموافقة سنة ١٨٦٩م.

٢٥٩- ١٠ يونيو سنة ١٨٧٣م.

عن سطح مياه البحر الابيض .كما قررته بعثة علمية فرنساوية في سنة ١١٩٢ هـ[٢٦٠] . لكن أسقط هذا القول بالبحث الذي أجري في أواسط هذا القرن (التاسع عشر).

ولما تحقق لدى العموم بإجماع العلماء أن سطح البحرين متساو، سعى المسيو (فردينان دي ليسبس) قنصل فرنسا في مصر لدى (سعيد باشا) والي مصر إذ ذاك للحصول على فرمان يخوّله امتياز تشكيل شركة عمومية لاتمام هذا العمل.

وبعد مساع لا مزيد عليها تحصّل على هذا الفرمان سنة ١٢٧١ هـ[٢٦١] ومما جاء فيه: أن يكون الخليج المزمع انشاؤه ملكا للشركة مدة ٩٩ سنة تبتدئ من يوم فتحه للملاحة وأن لا يعمل بهذا الفرمان ولا يبتدأ في العمل إلا بعد تصديق الباب العالي عليه.

وفي سنة ١٢٧٣ هـ[٢٦٢] تعهدت الحكومة للشركة بإحضار من يلزم لها من العملة من المصريين قهراً بالطريقة التي كانت متبعة في الأعمال العمومية أو أن تدفع لهم الشركة الأجر من طرفها..

ولما صدرت سهام الشركة لم يقبل الجمهور على شرائها لمعارضة الجرائد الانكليزية لهذا المشروع، فبقي في ايديها مائة وسبعة وسبعون ألف وستمائة واثنان واربعون سهماً، قيمة كل منها خمسمائة فرنك أي أن ثمنها عبارة عن ثلاثة ملايين وخمسمائة وخمسين ألف جنيه مصري وزيادة،، فحسن (المسيو دي ليسبس) لـ (سعيد باشا) أن يشتريها للحكومة المصرية، فاشتراها. ولما طلب منه عشري ثمنها عند الابتداء في العمل اقترض له.

واعترض الباب العالي على هذا الاتفاق، ومما جاء فيه.. أن لا يستعمل المصريون قهراً في أشغال الشركة، اذ كان يستغل بها في هذه الاثناء نحو ستين ألف مصري بطريق السخرة وأمهلت الدولة الشركة ستة أشهر لاعطاء الجواب والا يسقط حقها..

ولما انقضى الأجل ولم تجب الشركة بشيء، أعلنتها الحكومة المصرية بسقوط حقها في سنة ١٢٧٩ هـ[٢٦٣] فارعد (المسيو دي ليسبس) وأزبد، وتدخلت فرنسا، وكاد الأمر يفضي

٢٦٠- ١٧٧٩م.

٢٦١- مؤرخا ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤م.

٢٦٢- ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦.

٢٦٣- ١٢ اكتوبر سنة ١٨٦٣.

إلى ارتباكات سياسية، فقبلت الحكومة المصرية بحكم (نابليون الثالث) امبراطور فرنسا، ظنّا منها أنه ينصفها ضد الشركة، وغاب عنها أنه لا بد أن يميل إلى الشركة بعملي الجنسية و السياسية.

ونكتفي بالقول أنه حكم بما يأتي:

أولا: أن تدفع الحكومة المصرية للشركة مبلغ ثمانية وثلاثين مليون فرنكاً في مقابلة إبطال الشرط القاضي عليهما بإحضار العمال.

ثانيا: ثلاثين مليون فرنكا نظير ترك الاراضي التي رخص للشركة باحيائها وزراعتها.

ثالثا: ستة عشر مليون في مقابلة تخلي الشركة عن الترعة الحلوة وفوائدها، وتلتزم الحكومة زيادة عل ذلك بحفرها من القاهرة إلى الوادي، وبجعلها صالحة للملاحة في جميع أوقات السنة وعلى الشركة تطهيرها سنوياً بمعرفتها في مقابلة ثلاثمائة ألف فرنك فأخذها من الحكومة ويكون للشركة الحق في أخذ سبعين ألف متر مكعب من المياه في كل أربع و عشرين ساعة وبذلك يكون ما دفع من الحكومة المصرية بسبب عدم تبصر رجالها مائة واثنين وعشرين مليون فرنكاً.

وفي سنة ١٢٩٠ هـ[٢٦٤] توجه الخديو (إسماعيل باشا) إلى اوربا لدعوة ملوكها لحضور الاحتفال الذي صمم جنابه على اجراءها إظهاراً لسروره من إتمام العمل المضر بمصر مالياً و سياسياً وأخذ ايضاً يجهّز ما يلزم لاقامة الملوك و الوزراء من السرايات اللائقة بمقامهم وأنشأ لهم سراية في مدينة الاسماعيلية الجديدة، أنشأتها الشركة على نفقة الحكومة بمليونين من الفرنكات

وفي ١٧ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٦٩ قدم الوافدون وفي مقدمتهم إمبراطورة فرنسا وإمبراطور النمسا.. وقد طار ذكر هذا المهرجان حتى ملا البقاع وتحدث الناس في ترتيبه ونظامه ومصرفه. وقد بلغ مصرف هذا المهرجان ما يزيد على مليون ونصف من الجنيهات، وذلك قدر السدس من إيراد مصر سنة كاملة.

عزل السلطان عبد العزيز

٢٦٤- شهر مارس سنة ١٨٦٩م.

بعد الحوادث التي مر ذكرها اقتنع السلطان أن تحالف الدول مع الدولة في حرب القرم، وما بعدها لم تكن نتيجته إلا إضعافها بالتدخل في شؤونها الداخلية ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها، وبث روح الفتن والفساد في ممالكها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم، وأن كل ذلك يعود بالنفع على روسيا جارتها القوية وعدوتها القديمة لا سيما وقد عدّل الدول بعد الحرب الفرنساوية الألمانية أهم بنود معاهدة باريس التي أبرمت بعد حرب القرم لحفظ التوازن في البحر الأسود وعدم مراعاتها عقب إبرامها في حق ولايتي الأفلاق والبغدان. فلهذه الأسباب علم السلطان أن الأولى والأنجح لسياسة الدولة هو التباعد عن الدول الغربية والتحالف مع روسيا، وعضده في هذا الفكر، فأكثر السلطان من الاجتماع مع الجنرال (اغنالتبق) سفير روسيا بالآستانة، والمتواتر ـ وإن لم تثبته الاوراق الرسمية ـ أنهما كانا يسعيان لوضع أساس معاهدة هجومية دفاعية يكون من أهم بنودها الاختصاص بجميع بلاد الشرق وتتبع الولايات الاسلامية أو التي يغلب فيها العنصر الاسلامي للدولة الإسلامية وضم جميع الأقاليم المسيحية أو التي يسود فيها هذا العنصر للدولة الروسية. ولما شاع هذا المشروع لم يرق في أعين الدول الأوروبية التي لها مصالح في الشرق، وخصوصاً انكلترا. فأخذ عمالهم و سفراؤهم الظاهرون والسريون يلقون الوساوس في عقول السذج من أهل الآستانة وينسبون السلطان للتبذير والاسراف وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك، وربما استعان هؤلاء المغررون بطرق أخرى المطالع بها أدرى، وما زالوا يوسوسون ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله، وأن إقالته من الأعمال، واجبة لانتظام الدولة وسيرها على المحور المستقيم. وصادفت دسائسهم أذنا صاغية عند بعض العلماء لما خالج صدورهم من عدم الميل للسلطان بسبب عدم اتباعه بعض العوائد المألوفة لديهم مثل خروجه من ممالكه وزيارة معرض باريس وحضوره التشخيصات التياترية والبالوات (المراقص).

وكيفية خلعه على أصح الروايات: أن المؤامرة التي أوصلت إلى هذه النتيجة حصلت بين كل من (محمد رشدي باشا) الصدر الأعظم، و(حسين عوني باشا) ناظر الحربية، و(أحمد باشا قيصرلي) ناظر البحرية، و(أحمد مدحت باشا) وشيخ الإسلام (حسن خير الله أفندي) وقبل الشروع في تنفيذ ما صمموا عليه أصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب ذلك هذا نصها.

(إذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور، وليس له إلمام في الأمور السياسية، وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها، وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه)؟

الجواب: (يصح).

كتبه الفقير حسن خير الله

عفي عنه

ثم أناطوا (حسين عوني باشا) بأمر خلع (السلطان عبد العزيز) وشيخ الإسلام وباقي الوزراء بمبايعة (السلطان مراد).

وفي يوم الاثنين ٦ جمادي الأول سنة ١٢٩٣هـ[٢٦٥] أخذ ناظر البحرية في تجهيز المراكب لحصر السراية السلطانية بحرا، فاستغرب السلطان حصول المناورات بالبحر تحت شبابيكه بدون سابقة علمه، فأرسل يستعلم عن السبب فأجيب بأن دواعي الحال أوجبت ذلك، ثم أخبر (أحمد باشا) قيصرلي الصدر الأعظم و(مدحت باشا) بسؤال السلطان فعزموا على تنفيذ مشروعهم في مساء ذلك اليوم خوفا من أن يكون السلطان قد شعر بسيئ قصدهم، واتفقوا على تكليف من يدعي (رديف باشا) بحصر السراية برا، وتعهد (أحمد باشا) قيصرلي بحصرها بحرا وفي الساعة الثانية بعد غروب ذلك اليوم اجتمع المتآمرون في ديوان السر عسكرية وتوجه (رديف باشا) مع ألاف من الجند مؤلف من ٢٥٠٠ عسكري وأمر (سليمان باشا) رئيس المدرسة الحربية بخفر باب السراي مع مائة من تلامذة هذه المدرسة راكبين خيولهم ومسلحين بالبنادق الجديدة، ولما تم حصارها برا وبحرا وأخبر المتآمرون بذلك توجه (حسين عوني باشا) في عربة إلى مقر (السلطان مراد) وأركبه معه وعادا معا إلى السر عسكرية حيث كان بانتظارهما (شيخ الإسلام) و(الشريف عبد المطلب) وجميع أعيان الدولة من عسكريين وملكيين، ولما دخلاها أحاطت بالسراية فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج، ثم حصلت المبايعة للسلطان الجديد (مراد خان الخامس) من جميع الحاضرين على

٢٦٥- ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦م.

الأسلوب المتبع.

السلطان مراد خان الخامس

وهو ابن (السلطان عبد المجيد)، وكانت ولادته في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦هـ[٢٦٦]. هذا ولما تم أمر المبايعة أرسل مخصوص إلى (رديف باشا) يخبره بذلك ويسلمه صورة الفتوى القاضية بعزل (السلطان عبد العزيز)، فقصد (رديف باشا) باب الحريم واستدعى (جوهر آغا) رئيس آغاوات السراي وكلفه بأن يبلغ السلطان أن الأمة قد عزلته، وأنه مأمور بتوصيل السلطان المخلوع إلى سراي طوبقبو وسلمه صورة الفتوى ليطلعه عليها، فلم يصدق السلطان الخبر إلا بعد أن نظر من الشبابيك ورأى العساكر محيطة بسرايته برا وبحرا إحاطة السوار بالمعصم.

وعند ذلك أيقن أن التوقف لا يكون وراءه إلا الإكراه على الخروج فنزل مستسلما، وبمجرد خروجه أحاطت به العساكر وأنزلوه مع ابنه (يوسف عز الدين أفندي) في زورق ووالدته في ثان وباقي أولاده وأمهاتهم في ثالث، ثم خفرتهم الزوارق الحربية إلى أن أوصلتهم إلى سراي طوبقبو حيث كانت العساكر مصطفة على حافتي الطريق من البر إلى باب السراي.

وفي الساعة الحادية عشرة ليلا أطلقت المدافع من البر والبحر إيذانا بخلع (السلطان عبد العزيز) وتنصيب (السلطان مراد الخامس)، ونادى المنادون بذلك في الشوارع، فهرع الأهالي أفواجا إلى سراي السر عسكرية وبايعوا (السلطان مراد) ولم يحصل أدنى مقاومة من أحد ولم تحتج إحدى الدول على هذه الثورة الداخلية، وذلك مما يؤيد أن جميع القناصل كان عندهم علم بما حصل قبل وقوعه، وأنه ربما كان ذلك باتفاقهم.

وفي الساعة الثالثة صباحا ذهب (السلطان مراد) في عربة بين صفوف الأهالي إلى سراي بشكطاش حيث استمرت المبايعة ثلاثة أيام متوالية.

٢٦٦- ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠م.

وفاة السلطان عبد العزيز

ولقد اختلفت الأقوال في كيفية موت هذا السلطان، وكثرت الروايات عن ذلك، فمن قائل أنه قتل نفسه لعدم انتظام قواه العقلية بعد خلعه، ومن قائل أن الذين تآمروا على خلعه ارتكبوا هذا الأمر الفظيع فقتلوه خيفة أن يسعى في الرجوع إلى منصة الأحكام. وقد شاع أو أشاع أرباب الغايات أن قد أصابته أمراض دماغيه يوم خلعه فاضطربت أحواله، وفي هذا الأثناء وعلى حين غفلة أخذ مقصاً وقطع عرقاً من ذراعه الأيمن وقطع عرق ذراعه الأيسر واضطجع على متكأ حتى تصفّى دمه.

ولما شاع هذا الخبر علا صريخ الجواري وأتى الوزراء وبعد أن شاهدوا الحالة استدعوا لجنة طبية من مشاهير الأطباء، ومن ضمنهم أطباء سفراء الدول وبعد الكشف عليه طبع الكشف ووزع على العموم ونشر في الجرائد ليعلم الناس كيفية موته. وفي الساعة الخامسة عربيا نقلت جثته إلى سراي طوبقبو (وكان قد نقل منها إلى سراية أخرى يوم السبت السابق لوفاته بناء على طلبه) وهناك غسلت وجهزت. وفي الساعة العاشرة شيعت جنازته ودفن بجوار أبيه (السلطان محمود).

قتل حسين عوني باشا ومحمد راشد باشا

(حسن بك) هو ابن (إسماعيل بك)، أحد أعيان الجراكسة المهاجرين من بلادهم بعد دخولها ضمن أملاك روسيا، وكان ياورا لـ (يوسف عز الدين أفندي) نجل (السلطان عبد العزيز) الذي كان مشيرا للاوردي الهمايوني الخاص. ولما توفي (السلطان عبد العزيز) أراد (حسين عوني باشا) السر عسكر إبعاده عن الآستانة فألحقه بمدينة بغداد، وأمره بالسفر على عجل، فامتنع، فحبس بحسب الأصول العسكرية، ثم أظهر الرغبة في السفر وطلب إمهاله يومين لا غير للتأهب للسفر فأفرج عنه، وفي مساء يوم الخميس ٢٣ جمادي الأولى سنة

١٢٩٣هـ[٢٦٧] تسلح بأربعة مسدسات وخنجر ماض وقصد منزل (عوني باشا) فقيل له إنه بمنزل (مدحت باشا) فذهب إليه، ولما سأل الخدم عن (حسين عوني باشا) قالوا له إنه مع سائر الوكلاء (النظار) في مجلس مخصوص، فأوهمهم أن معه تلغرافاً مهما يختص بالحربية يريد توصيله فورا للسر عسكر، ثم انتظر برهة وطلع إلى المحل المجتمع فيه الوكلاء فوجد حارسا بالباب منعه عن الدخول، فقال له من أنت، قال: (سالم آغا) خادم الصدر الأعظم، فقال: اذهب وناد خادم (حسين عوني باشا) لأني مستعجل، فنزل (سالم آغا) وعندها دخل (حسن بك) الغرفة وأطلق غدارته على (حسين عوني باشا) فأصابه برصاصتين فقام للدفاع عن نفسه فأجهز عليه بالخنجر وأصاب (محمد راشد باشا) ناظر الخارجية برصاصة في عنقه أفقدته الحياة، ثم قام (أحمد باشا قيصرلي) ناظر البحرية وقبض على يد (حسن بك) فاثخنه جراحا حتى فر مع باقي الوزراء إلى غرفة أخرى تابعة لدائرة الحريم ووضعوا خلف الباب بعض امتعة ثقيلة، ثم جاء (أحمد آغا) رئيس خدم (مدحت باشا) وأراد القبض عليه فقتله، ثم حاول فتح الباب الذي اختفى باقي الوزراء خلفه، ولما لم يمكنه أطلق رصاصتين نفذتا من الخشب بدون أن تصيبا أحداً، ثم أخذ كرسيا وصار يكسر في الثريات لإطفاء النور وأخذ شمعدانا ليحرق به الأستار ويوقد النار في المنزل ليمكنه الهروب لكن لم يتمكن من ذلك، إذ حضرت عدة من عساكر الضبطية فقبضوا عليه بعد ان قتل (شكري بك) ياور الصدر الأعظم وأحد أنفار العساكر، ثم سيق إلى ديوان السر عسكرية، وفي صباح الجمعة تشكل مجلس حربي تحت رئاسة (رديف باشا) فحكم عليه بالتجريد من الرتب والقتل شنقا، وجرد في الحال من الرتب وعلامات الشرف. وفي فجر يوم السبت شنق على شجرة في ساحة (بايزيد) وبقي مشنوقا إلى صباح الاثنين وعلى صدره ورقة تبين أسباب شنقه ليكون عبره لغيره.

٢٦٧- ١٦ يونيو سنة ١٨٧٦م.

عزل السلطان مراد

وقد ظهرت على السلطان علامات الاضطراب العصبي عقب توليته بنحو أسبوع، ثم ازدادت شيئا فشيئا، خصوصا بعد ما بلغه خبر قتل (حسين عوني باشا) و(محمد راشد باشا) بالصفة التي سبق شرحها، حتى لم يتمكن من تمييز الوزراء عن بعضهم، ومع ذلك فكان الصدر الأعظم يخفي هذا الأمر عن العموم لكن ذاع خبره لعدم إجراء الاحتفال بتسليمه السيف السلطاني في جامع (أبي أيوب الأنصاري) حسب العادة، ولعدم مقابلته قناصل الدول ليقدموا إليه أوراق تجديد تعيينهم لدى حكومته. وأخيرا لما اشتد عليه الحال استدعى الوزراء الطبيب (ليدزورف) النمساوي الشهير بمداواة الأمراض العقلية فحضر، وبعد أن فحصه ولازمه عدة أيام متفرسا كل ما يبدو منه من الأقوال والإشارات واستعلم عن عاداته وكيفية معيشته، قال: بتعسر برئه من هذا المرض. فتشاور الوزراء في الأمر ثم عرضوا على أخيه (عبد الحميد أفندي) أن تسلم إليه مقاليد الأحكام، حيث حكم الأطباء بعدم لياقة أخيه (السلطان مراد) لإدارة مهامها، فأجابهم: أن الأولى عدم التسرّع.. فامتثل الوزراء، لكن لما رأوا أن الحالة في إزدياد اجتمعوا في يوم الأربعاء ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣هـ[٢٦٨] وقرروا بوجوب المبايعة لـ (عبد الحميد خان الثاني) وأرسلوا رقيما لوالدة (السلطان مراد) يخبرونها بذلك، فأجابت باستحسان ما قرروه. ثم في صباح يوم الخميس اجتمع الوزراء ثانية واستدعوا شيخ الإسلام (خيرالله أفندي) وجميع الذوات والعلماء والأمراء والأعيان واستفتوا شيخ الإسلام في الأمر، فأفتى بوجوب عزله وهاك نص الفتوى :

صورة استفتاء الوزراء

في وجوب خلع السلطان مراد خان الخامس

(إذا جن إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته)؟

الجواب: (يصح والله أعلم).

٢٦٨- ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦م.

كتبه الفقير حسن خيرالله

عفي عنه

السلطان عبد الحميد خان الثاني

وبعدها أرسلوا في طلب السلطان الجديد إلى سراي طوبقبو وبايعه الحاضرون. ومنها إلى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء روحانيين وغيرهم.

أما (السلطان مراد) فتوجه إلى سراي جراغان التي كان بناها (السلطان عبد العزيز) واستشهد بها، ثم أخطرت الولايات وزينت المدينة ثلاثة أيام توالى فيها إطلاق المدافع في الأوقات الخمس من الطوابي والمراكب الحربية. وفي يوم ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣هـ[٢٦٩] تقلد السلطان السيف المنيف في جامع (أبي أيوب الأنصاري) على ما جرت به العادة، وكان ذهابه إلى هذا الجامع في موكب حافل لم يسبق له مثيل، وبعد ذلك استلم إدارة الأعمال بهمة ونشاط.

البرلمان العثماني الأول

وفي ٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٤هـ[٢٧٠] فتح البرلمان العثماني الأول في سراي بشكطاش، وعند افتتاحه تليت خطبة أنيقة عن لسان السلطان، وبحضوره شرحت فيها جميع الأسباب التي أدت إلى انحطاط الدولة وتأخرها سلميا وسياسيا، وبعد تشخيص الداء بيّن فيها الدواء وما يلزم للمملكة من الإصلاحات ونشر التعليم والمساواة بين الجميع والعدل في الأحكام. وفي ١٢دسمبر سنة ١٢٩٣هـ[٢٧١] قضت المراحم السلطانية فأصدر فرمانا بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية وتعيين قضاة من الأهالي بطريق الانتخاب وتوحيد الضرائب

٢٦٩-٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦م.

٢٧٠-١٩ مارس سنة ١٨٧٧م.

٢٧١- سنة ١٨٧٥م.

والمساواة فيها بين المسيحيين والمسلمين .

حادثة سلانيك ولائحة برلين

وتفصيل هذه الحادثة أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الدين الحنيفي الإسلامي طائعة مختارة وأتت إلى سلانيك في سنة ١٢٩٣هـ[٢٧٢] لإثبات إسلامها شرعا، فتعرض لها بعض أوباش الأروام في الطريق حين توجهها إلى دار الحكومة واختطفوها من أيدي المحافظين عليها بالقوة، وأخفوها أولا في محل (قنصلاتو) أمريكا ثم في أحد بيوت كبرائهم، ولما اشتهر هذا الخبر بين المسلمين هاجوا وماجوا وتجمعوا في فسحة دار الحكومة طالبين البحث عن البنت وتخليصها من أيدي المخفين لها، فوعدهم الوالي بإجراء شؤون وظيفته.

ثم لما رأى المسلمون عدم نجاح بحث الحكومة تجمعوا ثانيا في اليوم الثاني في أحد الجوامع مشددين النكير على الحكومة، وفي أثناء هذا الهياج حضر قنصلا فرنسا وألمانيا ويقال انهما دخلا الجامع، ولتواتر الاشاعة بان البنت في بيت قنصل المانيا ازداد الهياج، وفي أقل من القليل بلغت الحدة منتهاها من المجتمعين وتعدوا على القنصلين بالقتل.

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الدول اضطرب وزراؤها وتبادلوا المخابرات البرقية للاتفاق على اتخاذ سبب للتدخل.

وفي ١١ منه اجتمع (البرنس غورشاكوف) وزير روسيا و(الكونت أندراسي) وزير النمسا بـ (البرنس دي بسمارك) بمدينة برلين وأخذوا في المداولة معا يومي ١١و ١٢منه. وفي ١٣ منه حرروا لائحة إلى الباب العالي معروفة في كتب السياسة بلائحة برلين، وصدقت عليها دولتا ايطاليا وفرنسا، ومفادها التشديد على الباب العالي بتنفيذ ما جاء في الفرمان السلطاني المؤرخ ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥م وتعيين مجلس دولي لمراقبة تنفيذه وإجراء كل ما فيه إصلاح حال المسيحيين في هذه الولايات وأن تبرم الدولة مع الثائرين هدنة قدرها شهران أو ستة أسابيع على الأقل للوصول إلى اتفاق مرض لهم، وأنه إن لم تتفق مع الثائرين في خلال هذه الهدنة تكون الدول الموقعة عليها مضطرة لاستعمال القوة لإجبار الباب العالي على تنفيذ

٢٧٢- ٥ مايو سنة ١٨٧٦م.

هذه اللائحة. فيرى في ذلك المطالع أن الدول كانت متفقة على محاربة الدولة لتقسيم أملاكها فيما بينهم أو بالأقل سلخ جميع الولايات التي بها مسيحيون.

وفي سنة ١٢٩٣ هـ[٢٧٣] حصلت عدة مذابح في كثير من القرى قتل فيها كثير من المسلمين لتجردهم عن السلاح وعدم إمكانهم رد القوة بمثلها. ولما وصل هذا الخبر إلى الوالي أرسل إلى الآستانة يطلب الجيوش لاتساع نطاق الثورة شيئا فشيئا، وعدم كفاية العساكر الموجودة تحت أمره، ثم وزع كثيرا من الأسلحة على المسلمين ونظمهم بهيئة رديف[٢٧٤]. ولما أتى إليه المدد أمكنه قمع الثورة بواسطة الألايات المنتظمة والباشبوزوق والرديف واستعمال الشدة مع من يضبط من الثائرين. ولما كادت تخيب مساعي دعاة الفساد أشاعوا بأوروبا ان العساكر العثمانية ارتكبت ما لا يرتكبه المتبربرون.

وفي شعبان سنة ١٢٩٣ هـ[٢٧٥] اجتمع مؤتمر بصفة رسمية في سراي البحرية تحت رئاسة (صفوت باشا) ناظر خارجية الدولة، وانتخب هو رئيسا له لانعقاد المؤتمر في الآستانة، وعضوية كل من (أدهم باشا) سفير الدولة ببرلين، والكونت (فرنسوا دي بورجوان) والكونت (دي شودوردي) عن فرنسا، والبارون (وزر) عن ألمانيا، والكونت (كورتي) عن إيطاليا، والكونت (زيكي) من أشراف المجر، والبارون (كاليس) النمساوي عن النمسا، والجنرال (اغناتيف) عن روسيا، واللورد (سالسبوري) والسير(هنري ليوت) عن انكلترا. وفي يوم انعقاده اطلقت المدافع من جميع القلاع والمراكب إيذانا باعلان القانون الاساسي الذي ساوى بين جميع رعايا الدولة.

٢٧٣- أول مايو سنة ١٨٧٦م.

٢٧٤- الرديف هو الاحتياط.

٢٧٥- يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م.

سقوط قارص

وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٢٩٤هـ[٢٧٦] اتخذ الجنرال (لوريس مليكوف) خطة الهجوم ثانيا ولعدم إرسال جيوش جديدة إلى (مختار باشا) واستشهاد عدد كبير من جنوده في هذه الوقائع المستمرة لم يمكنه مقاومة الجيوش الروسية الجديدة التي لم يضنها التعب بل رجع القهقرى قاصدا مدينة أرضروم، فتبعه القائد الروسي وهزمه في موقع يقال له (آلاجه طاغ)[٢٧٧] ثم حاصر مدينة قارص[٢٧٨] وفتحها عنوة في ١٨ نوفمبر سنة ١٢٩٤هـ[٢٧٩] بعد أن حاول من بها الخروج من وسط المدافع الروسية، وغنم منها ثلاثمائة مدفع تقريباً.

حل مجلس النواب

واستمر اجتماع مجلس النواب العثماني إلى أن قرر السلطان بالاتحاد مع جميع أعيان الدولة وجوب إرجاء اجتماعه لأجل غير محدد لعدم ملائمة الظروف لوجوده، وأعلن ذلك رسميا إليه في يوم ١٤ فبراير سنة ١٢٩٥هـ[٢٨٠]، وعقب فضه ضبط كثير من أعضائه ونفوا خارج البلاد بسبب تنديدهم بأعمال الحكومة واعتراضهم على إجراءاتها، ولم يجتمع بعد ذلك.

أما الوزارات فتعاقبت بسرعة غريبة، مع ان الحكمة كانت تقضي بعدم تغييرها وبقاء الوزراء في مناصبهم في مثل هذه الظروف الخطيرة، ففي ٧ محرم سنة ١٢٩٥هـ[٢٨١] عزل

٢٧٦- سنة ١٨٧٧م.

٢٧٧- آلاجه طاغ: بلد يقع في الشمال الشرقي من انقرة.

٢٧٨- قارص: تفع شرق البحر الأسود، وهي الآن في تركيا قرب الحدود الجورجية.

٢٧٩- سنة ١٨٧٧م.

٢٨٠- سنة ١٨٧٨م.

٢٨١-١١ يناير سنة ١٨٧٨م.

(أدهم باشا) وعين مكانه (أحمد حمدي باشا) واستبدل أغلب النظار (الوكلاء) بغيرهم. وفي غرة صفر من السنة المذكورة أي بعد ذلك بثلاثة وعشرين يوما ألغي لقب الصدر الأعظم واستبدل بلقب رئيس الوكلاء، ووجه هذا المنصب إلى (أحمد رفيق باشا) الذي كان ناظرا للمعارف في الوزارة السابقة.

وفي ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٥هـ[٢٨٢] ولي (الصادق محمد باشا) مسند رئاسة الوكلاء. وفي ٢٧ جمادى الأولى[٢٨٣] ألغي لقب رئيس الوكلاء وأعيد لقب الصدر الأعظم وأسند إلى (محمد رشدي) الملقب بالمترجم الذي تقلد هذا المنصب أكثر من مرة، ولم يلبث في هذا المنصب الا ستة أيام، وعزل في ٤ جمادى الأخيرة[٢٨٤] وعين مكانه (صفوت باشا) الذي كان وزيرا للخارجية أثناء انعقاد مؤتمر الآستانة قبل إعلان الحرب من روسيا، واستمر هذا الوزير متقلدا منصب الصدارة العظمى إلى ديسمبر سنة ١٢٩٥هـ[٢٨٥]، حيث أحيل هذا المنصب إلى عهدة (خير الدين باشا).

حادثة جراغان

وفي يوم ١٧ جمادى الأولى[٢٨٦] حصلت بالآستانة حادثة كادت تكون سبباً لدخول عساكر الروس اليها واحتلالها عسكريا، وذلك أن شخصا يدعى (علي سعاوي أفندي)، بخاري الأصل، أتى إلى الآستانة لطلب العلم وتحصل على نصيب وافر من العلوم العربية حتى صار على جانب عظيم من الفصاحة في الإنشاد والخطابة، لكنه كان ميالا إلى إثارة الفتن وإلقاء الدسائس، فنفي أولا سنة ١٢٨٧هـ[٢٨٧] ومكث خارجا عن البلاد تسع سنوات، ثم

٢٨٢-١٨ ابريل سنة ١٨٧٨م.

٢٨٣-الموافق ٢٩ مايو.

٢٨٤-٥ يونيو.

٢٨٥- سنة ١٨٧٨م.

٢٨٦-٥ مايو.

٢٨٧- ١٨٧٠م.

عاد إلى الآستانة بمسعى (مدحت باشا) وعيّن ناظرا على المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أولاد (السلطان عبد الحميد)، ثم عزل لعدم تحسن أحواله وتدخله في الأمور السياسية، وبعد عزله أخذ يدبر في طريقة لإثارة فتنة في الآستانة لعزل (السلطان عبد الحميد) وإعادة (السلطان مراد) إلى عرش الخلافة، وانتهز لذلك فرصة اشتغال الدولة بالمخابرات السياسية واضطراب الأفكار بسبب احتلال الروس لضواحي الآستانة ووجود نحو (١٥٠٠٠٠) نفس من المسلمين المهاجرين من البلاد التي وطئتها عساكر روسيا بخيولها، و منهم من هو غير راض عن الحالة الحاضرة، واتفق مع نحو مائتين منهم على تنفيذ ما يكنه صدره من الفتن.

واجتمعوا في اليوم المذكور قبل الظهر وانقسموا إلى قسمين، القسم الأول منهم قصد سراية جراغان من جهة البحر تحت رئاسة زعيم يقال له (صالح بك). والثاني تحت رئاسة (علي سعاوي أفندي) من جهة البر. وكانوا جميعهم متزيين بزي المهاجرين. ثم اجتمع القسمان عند باب السراية وحاولوا الدخول فيها، فمنعهم الحارس فقتلوه، ودخلوا السراية، وصاروا يفتشون على (السلطان مراد) حتى عثروا عليه في حجرته، وسلمه (سعاوي أفندي) طبنجة (مسدس).

وفي أثناء ذلك أتت فرقة من الجنود من سراي يلدز المقيم بها (السلطان عبد الحميد) وحاصرت الثائرين من جهة البر. كما حاصرتها قوارب المراكب البحرية من جهة البحر. ولم يمض الا قليل حتى قتل الجند جميع من دخل السراية من الثائرين وفي مقدمتهم رئيس العصابة (علي سعاوي). وبعد إطفاء هذه الفتنة والقبض على من بقي حيا منهم، نقل (السلطان مراد) وعائلته إلى قصر داخل ضمن سراي يلدز العامرة، وبذلك هدأت الأفكار وعادت الناس إلى فتح دكاكينهم بعد أن أغلقوها.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، أي في يوم ٢٠ جمادي الأولى[٢٨٨] التهمت النيران جزءاً عظيماً من الباب العالي نفسه، وأحرقت دائرة شورى الدولة وتوابعها، ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها مع جميع ما فيهما من الأمتعة والفروشات والأوراق الرسمية. ومن المظنون أن هذا الحريق لم يكن الا بفعل أرباب الثورة انتقاما مما أصابهم من الخذلان في حادثة جراغان.

٢٨٨- ٢٢مايو.

ومن تأمل إلى خريطة الدولة يتضح له أن الروسية قد محت تركية أوروبا بأجمعها تقريباً من العالم السياسي، ولم يبق للدولة بها الا أربع قطع صغيرة لا اتصال بين ثلاثة منها إلا بطريق البحر ولا بين الثالثة والرابعة الا بطريق ضيقة تمر بين أراضي الصرب والجبل الأسود، ولا يزيد اتساعها في بعض المواضع عن خمسة كيلومترات بحيث يتيسر لإحدى الأمارتين منع الجيوش العثمانية من المرور وقطع الطريق عليها كلية، والقطعة الأولى هي مدينة الآستانة وضواحيها، والثانية مدينة سلانيك والبحيث جزيرة القريبة منها، والثالثة مكونة من بلاد ابيروس وجزء من بلاد الارنؤود، والرابعة من إقليمي البوسنه والهرسك. وما بقي من أملاكها أعطي منه جزء للصرب وآخر للجبل الأسود وشكل الباقي بصفة إمارة مستقلة إداريا تسمى إمارة بلغاريا تمتد من الطونه إلى البحر الأسود شرقا، وبحر الارخبيل جنوبا، وتحيط بمدينة الآستانة من جميع جهاتها البرية، وزد على ذلك ما اشترط من احتلال الجنود الروسية لبلاد بلغاريا مدة سنتين.

أما في آسيا فأخذت قلاع قارص وباطوم وبايزيد إلى حدود أرضروم تقريباً، واعترف الباب العالي ضمن هذه المعاهدة باستقلال كل من الصرب والجبل الأسود ورومانيا استقلالا سياسيا تاماً، وبالتنازل لمملكة رومانيا عن إقليم الدبروجه مقابل سلخ إقليم بساربيا من رومانيا وضمها إلى روسيا لتنظيم حدودها، حتى يكون كل من نهري البروث والطونه من ابتداء اتحاد البروث معه إلى البحر الأسود فاصلا بين رومانيا وروسيا. ولم يراع في هذه التقسيمات صالح الأمم المراد سلخها عن الدولة ولا حدودها، بل أضافوا إلى إمارة البلغار بلادا كثيرة أغلب سكانها من الأروام والصرب، وإلى الصرب والجبل الأسود بلادا بها كثير من الأرنؤود المسيحيين والمسلمين.

القانون الأساسي والسلطان عبد الحميد

خلع (السلطان مراد) سنة ١٢٩٣هـ[٢٨٩] وجلس (السلطان عبد الحميد) على عرش الخلافة، وكان قد وعد رئيس الأحرار (مدحت باشا) قبل جلوسه على العرش بمنح القانون الأساسي، وإمتاع الأمة العثمانية بالحرية.

إلا أن (عبد الحميد) أظهر حين جلوسه علامات دلت على إخلافه وعده، فمن ذلك أنه جمع أعداء الأحرار وأضداد القانون الأساسي وعينهم في السراي لتقوية مركزه، مع أنه وعد (مدحت باشا) بتعيين الشاعر العثماني الكبير (نامق كمال بك) زعيم الانقلاب باشكاتبا، و(ضياء باشا) الأديب السياسي الشهير مشيرا للمابين[٢٩٠]، فأخلف وعده. كما أنه كان يسعى جهده لاستمالة الرأي العام إليه، فكان يخدع الأهالي، الا أن الأحرار لم ينخدعوا واستعدوا للمناضلة في سبيل القانون الأساسي.

وقرر (السلطان عبد الحميد) تعيين (مدحت باشا) كي ينظر في مسألة المؤتمر الأوروبي الذي قررت الدول عقده في الآستانة. وفي اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٥ هـ[٢٩١] اجتمع الوكلاء والعلماء والأمراء وغيرهم في الباب العالي، ثم أقبل (مدحت باشا) وقرأ الارادة الشاهانية التي منحت الأمة العثمانية الدستور والحرية، فهتفوا له جميعا وحياه العثمانيون من صميم قلوبهم، واذ ذاك أطلقت القنابل تحية للقانون الأساسي. وكان أعضاء المؤتمر الدولى مجتمعين في الطوبخانة، وبينما كانوا يتباحثون في النقط التي سيتناقشون فيها سمعوا القنابل وهي تدوي فقام (صفوت باشا) ناظر الخارجية وقال للأعضاء: (أن الأمة العثمانية قد نالت مطالبها الشرعية وهي تتمتع بحريتها الشرعية فلا لزوم لهذا الاجتماع بعد هذا الانقلاب) فوجم الجميع وظلوا ساكتين، فطلب سفير روسيا المناقشة في الموضوع، ولكن المندوبين العثمانيين انسحبا وخرجا وقد قام العثمانيون بمظاهرة ضد اجتماع المؤتمر الدولي وطلبوا الحرب.

٢٨٩- سنة ١٨٧٦م.

٢٩٠- ديوان القصر السلطاني.

٢٩١-٢٤ دسمبر ١٨٧٧م.

اجتماع مجلس المبعوثين الأول

اجتمع مجلس المبعوثين لأول مرة سنة ١٢٩٥هـ[٢٩٢] في سراي طوله باغجة، وافتتحه (السلطان عبد الحميد) بخطابة مطولة بحث فيها بعد مقدمة تاريخية عن الامتيازات التي منحت للعناصر غير المسلمة، ثم القروض التي عقدت بعد حرب القرم، ثم الاختلالات المالية التي حدثت أثناء حكم (السلطان عبد العزيز) في عصيان البوسنة والهرسك، ثم وجوب منح القانون الأساسي لتخليص الدولة من الاضمحلال والانقراض، ثم قال:

(عليكم أيها الأعضاء هذه السنة أن تضعوا النظامات الداخلية للمجلس، وقانون الانتخاب، وقوانين ادارة الولايات والنواحي، وقانون البلدية، وأصول المحاكمات المدنية، وقانون ترقية الموظفين وقانون المطبوعات وديوان المحاسبات والتدقيق في الميزانية).

على أنه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثين وينظر في شؤون الدولة حتى صدرت الارادة الشاهانية بفضّه، فتقوضت كل أركان ذلك البناء وابتليت الأمة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتى في عصور الظلمات.

هدم (السلطان عبد الحميد) ما بناه الأحرار، ولكن رغما من ذلك لم تمت الفكرة في رؤوس العثمانين، فإن هذا الجسم على قوته الكامنة بل على ضعفه الظاهر لم يقو على تحمل أذى الحكومة الحميدية بما انتابته من ضروب الظلم، لاسيما وألوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وكواكب الحرية قد سطعت في كل مكان.

وانتهى الدستوريون من وضع الخطة أواخر شهر يونيو سنة ١٩٠٨م، فأرسلت الحكومة الحميدية (شمسي باشا) لاقتفاء أثر عصابة (نيازي بك)، ولكنه قتل قبل أن يبدأ في مهمته. وأرسلت أيضا من أزمير ثلاثين فرقة من فرق الرديف فانضمت إلى الدستوريين وقوت صفوفهم.

ولكن (السلطان عبد الحميد) استمر على المقاومة فقرر جيش الحرية أن يحمل الحملة الأخيرة. فأطلقت القنابل على حامية الباب العالي والنادي العسكري، واستولت عليهما. ثم

٢٩٢- سنة ١٨٧٧م.

قبضت على الكثيرين من أنصار الحكم القديم الذين أثاروا الفتن، ومن بينهم (مراد بك الداغستاني)، وأعدم الجواسيس رميا بالرصاص، ويقدر عدد القتلى بـ(١٢٠٠) قتيل، وحاصرت الجنود الدستورية بعدها قشلاقات اسكودار، فاستولت عليها. ولم يبق إذ ذاك أي خطر على القانون الأساسي، فعاد أعضاء البرلمان إلى الآستانة واجتمعت الجمعية العمومية لتتداول في أمر (السلطان عبد الحميد). وكانت النتيجة عزل (السلطان عبد الحميد) وتولية (السلطان رشاد) مكانه.

خليفة العثمانيين
محمد رشاد خان الخامس

ولد سنة ١٢٦٠ هـ [٢٩٣] وقد قضى أغلب عمره في قصر زنجيرلي كوي محوطا بالجواسيس الذين يرصدون حركاته ويقدمون التقارير المشوهة عنه. فظل كذلك إلى حين حدوث الانقلاب العثماني، وتخلص مع الشعب العثماني من الاستبداد والمراقبة، اذ دالت دولة الجواسيس وثل عرش الاستبداد. الا أن (عبد الحميد) الذي طبع على الاستبداد لم يرقه أن يرى أمته متمتعة بالحرية راقية أوج الكمالات.. منظمة امورها بنفسها.. مقيمة العدل، فسوّلت له نفسه إحداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الادارة الدستورية.

اجتمع المجلس العمومي اجتماعا سريا وخلع (عبد الحميد) بموجب فتوى من شيخ الإسلام هذا نصها:

(إذا اعتاد زيد الذي هو إمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية، وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها، وان يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي، وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم، ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه يصلح حاله، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلة وأصر على المقاتلة، وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور، ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين أنهم

٢٩٣- ١٨٤٤م.

يعتبرونه مخلوعا وأصبح بقاؤه محقق الضرر، وزواله محتمل الصلاح، فهل يجب أحد الأمرين خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الإمامة والسلطنة، على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأُولي الأمر من هذين الوجهين)؟.

الجواب: (يجب).

كتبه الفقير

السيد محمد ضياء الدين عفي عنه

فلمّا قرئت الفتوى الشرعية الموقع عليها بتوقيع شيخ الإسلام (محمد ضياء الدين افندي) في المجلس العمومي المؤلف من المبعوثين والاعيان، ورجح بالاتفاق وجه الخلع الذي هو أحد الوجهين المخير بينهما، فأسقط (السلطان عبد الحميد خان) من الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية، وأصعد ولي العهد (محمد رشاد أفندي) باسم (السلطان محمد خان الخامس) إلى مقام الخلافة والسلطنة وكان خلع (عبد الحميد) سنة ١٩٠٩م.

أواخر سلاطين بني عثمان

إن آخر من ذكره المؤلف[٢٩٤] من سلاطين آل عثمان هو (السلطان محمد رشاد الخامس) وقد جاء ذكره استدراكا في هذه الطبعة التي بين أيدينا لأن المؤلف ذكر في المقدمة (السلطان عبد الحميد الثاني) على اعتبار أنه خليفة المسلمين وأنه حي يرزق. ومن هذا يبدو بأن هذا الكتاب كتب قبل سنة ١٩٠٩م ثم أعيد طبعه سنة ١٩١٢م، أي بعد مرور ثلاث سنوات على خلافة (محمد رشاد)، كما جاء في حديث المؤلف عن هذا السلطان، ولذا فإنه لم يذكر عنه شيئا ذا شأن ولم يتعرض لما كانت تعانيه البلاد من اضطرابات ورثها عن أسلافه، ومن ذلك ظهور الحزبية في الدولة، وضياع طرابلس الغرب واستقلال أكثر دول البلقان. ثم ظهور النزعة التركية بقوة وعنف، وأعني بذلك سعي حزب الاتحاد والترقي الذي استلم الحكم في البلاد إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع العثمانيين، مثل العرب والشركس والأكراد

٢٩٤- هذا الملحق كتبه الدكتور إحسان حقي، وقد خضع للتلخيص.

والأرمن وبالتالي نشوب الحرب العالمية الاولى التي كان فيها القضاء على الدولة العثمانية بعد ان عاشت ستمائة سنة.

لقد تولى (محمد رشاد) العرش والدولة في احتضار ولكنها كانت متماسكة وشاء القدر أن لا تلفظ أنفاسها في عهده وأن لا يشهد مأتمها بل أن يكون ذلك من نصيب خليفته، حيث أن (محمد رشاد) مات قبل ذلك.

ومن سوء طالعه أنه اعتلى العرش وجناح الدولة مهيض، وقد أضاعت كثيراً من بلادها في أوربا بعدت معاهدتي (سان استيفان) و(برلين)، وسوس القوميات ينخر في جسم الدولة، والأيدي الأجنبية تلعب بالقلوب والجيوب، و البلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوربيون قد تسلّطوا على مالية الدولة بحجة استيفاء ما لهم عليها من ديون.

يوسف عزالدين

كانت ولاية العهد بعد (محمد رشاد) للأمير (يوسف عزالدين)، لأن ولاية العهد في الدولة العثمانية كانت من حق أكبر أفراد الأسرة المالكة سنا، بعد الجالس على العرش وليس من حق أكبر أولاد الجالس على العرش. وقد مات مسموماً، قتله الاتحاديون لأنه لم يكن يرى رأيهم، ولا يوافقهم على سياستهم، وأشيع أنه مات منتحرا إثر نوبة جنون أصابته كالتي أصابت أباه (عبد العزيز) فانتحر.

محمد وحيد الدين السادس بن مراد

بعد وفاة (يوسف عزّ الدين) صارت ولاية العهد إلى الأمير (وحيد الدين)، فخلف أخاه (محمد رشاد) على العرش باسم (محمد السادس) ولم تمض على خلافته بضعة شهور حتى استسلمت الدولة العثمانية[٢٩٥] واستولت جيوش الأعداء على كل البلاد من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، ولم يسلم من ايديهم وتعدياتهم إلا شرق الاناضول، لأن روسيا كانت قد انسحبت من الحرب سنة ١٩١٧م بعد ان فرضت عليها الشيوعية، ولذا فإنها لم تستطع ان تحرك ساكنا لتستولي على شرق الاناضول. ولولا ذلك لما بقي بلد من بلاد الدولة العثمانية لم يدخل في حوزة اعدائها.

أراد (وحيد الدين) أن ينقذ ما يمكن انقاذه من البلاد، فاستعان (بمصطفى كمال) وعهد إليه بإنقاذ البلاد، ولكنه وضع ثقته في غير موضعها، فلما رأى أن (مصطفى كمال) أخذ يعمل لحسابه الخاص وليس لحساب الدولة، ورأى أن الأمور تسير على غير ما كان يرجو، تنازل عن العرش سنة ١٩٢٢م واعتزل الحياة السياسية ومات سنة ١٩٢٦م.

عبد المجيد بن عبد العزيز

واعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل (السلطان محمد وحيد الدين)، ولي العهد الذي اصبح (السلطان عبد المجيد)، وبعد أن أصبح (مصطفى كمال) سيد الموقف جرد السلطان من السلطة الزمنية، ثم ألغي الخلافة سنة ١٩٢٤م وطرد (عبد المجيد) فذهب ليعيش في منفاه في مدينة (نيس) الافرنسية على الشاطئ اللازوردي.

٢٩٥- في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، حيث أن الدولة العثمانية كانت قد انضمت إلى جانب دول ألمانيا والنمسا والبلغار ضد انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا.

الخاتمة[٢٩٦]

ما هي الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية؟

إذا كان بعض الناس يعطون للدول أعمارا كأعمار المخلوقات ويقولون إن الدول تشيخ وتهرم فتموت بفعل مرور الزمن فأنا لست أرى هذا الرأي ولا أرى الدول تشبه المخلوقات ذات الأعمار المحدودة. وإنما عمر الدول يتجدد بتجدد الأجيال. فإذا كانت الأجيال التي تعيش في دولة ما من الدول حية قوية نشيطة عاملة واعية عاشت الدولة ما عاشوا متمتعين بهذه الصفات لأن عمر الدولة يتجدد مع كل جيل.

وأما إذا كانت هذه ضعيفة كسولة متواكلة مهملة ماتت دولتهم بموتهم لكي تعيش في غيرهم ممن يصلحون للحياة، فالدولة لا تموت بذاتها إذ ليس فيها ما يموت وإنما تموت بأهلها.

فبعد أن تقرر لدينا هذا يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى زوال الدولة العثمانية بعد أن سيطرت على العالم بضعة قرون كانت فيها ملئ عين الزمان وسمعه، لا بل كانت فمه القائل ويده الباطشة ولسانه الناطق.

وترجع هذه الاسباب، في نظري، إلى:

- زواج السلاطين بالأجنبيات وتسلّط هؤلاء الأجنبيات على عواطف أزواجهن وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية وتحكمهنّ بمقدرات الدولة. فكم من الملوك قتلوا أولادهم أو إخوانهم بدسائس زوجاتهم وارتكبوا أعمالا تضرُّ بمصلحتهم إرضاء لزوجاتهم.
- تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي كان الأجانب والحكّام يقدمونهن هدية للسلطان كأنهن السلع أو التحف واللواتي كان السلاطين إذا رأوا كثرتهن في قصورهم يهدونهن أحياناً إلى قادتهم أو خواصهم على سبيل التكريم. وكان من البديهي أن يحصل بين أولاد الأمهات وأمهات الأولاد، سواء أكانت الامهات زوجات أو محظيات، تحاسد وتباغض

٢٩٦- آثرنا نقل هذا البحث الذي كتبه الدكتور إحسان حقي في نهاية أصل الكتاب والذي يلخص فيه مجملاً بعض أسباب انهيار الدولة العثمانية. (الناشر)

يؤديان إلى قتل السلاطين أولادهم وإخوانهم وإلى أمور غير معقولة ومقبولة عقلاً وشرعاً.

- تفكك روابط الأسرة السلطانية بسبب كثرة النساء حتى أصبحت عادة قتل السلطان إخوانه أو أولاده، يوم يتولى العرش، أمرا معروفا و مألوفا. وكأنه يضحي بخراف احتفاء بهذا اليوم من غير أن يشعر بوخز ضمير أو لسعة ألم.

ولذا فقد كان أفراد الأسرة السلطانية يعيشون في خوف مستمر ويتربص بعضهم بالبعض الآخر الدوائر ولا يبالون بأن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطان سواء أكان أخا أم أبا أم ابنا وذلك ليس حبا بالسيطرة فقط بل لإنقاذ أعناقهم أحياناً من الغدر.

- تدخّل نساء القصر بالسياسة وشفاعتهن لدى أزواجهن السلاطين برفع الخدم إلى منصب الوزارة أو إيصال المتزلفين إلى مراتب الحل و العقد، كرئاسة الوزارة وقيادة الجيش. وفي كثير من الأحيان لا يكون لهؤلاء الرجال من ميزة يمتازون إلا تجسسهم لحسابهن.
- بقاء أولياء العهد مسجونين في دور الحريم فلا يرون من الدنيا شيئا ولا يعلمون شيئا، و كثيرا ما كانوا لا يتعلمون شيئا أيضا لأنهم لم يكونوا يدرون إلى ما سيصيرون فإما أنهم يذهبون ضحية مؤامرة قبل أن يصلوا إلى العرش وإما أنهم يصلون إلى العرش لكي يجدوا فئة من الناس تسيطر عليهم وتتحكم بهم أو يسحبون عن العرش ويقتلون أو تسيرهم نساء القصر أو يسيرهم جهلهم.

وتسليم أمور الدولة إلى غير الأكفاء من الناس إذ كان طباخ القصر وبستانيه وحطابه والخصي والخادم يصلون إلى رتبة رئاسة الوزارة أو القيادة العامة للجيش. فماذا ينتظر من جاهل أن يفعل؟

- احتجاب السلاطين وعدم ممارستهم السلطة بأنفسهم والاتكال على وزراء جهال. فقد كان سلاطين آل عثمان حتى (السلطان سليم الأول) يتولون قيادة الجيش بأنفسهم، فيبعثون الحماسة والحمية في صدور الجنود ، ثم صار السلاطين يعهدون بالقيادة إلى ضباط فصار الجنود يتقاعسون و يتهاونون تبعا للمثل القائل: (الناس على دين ملوكهم).
- تبذير الملوك حتى بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان ثلث واردات الدولة.
- خيانة الوزراء، إذا أنّ كثيرًا من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالاسلام ويدخلون

في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس حتى يصلوا إلى أعلى المراتب، وقد أبدى (السلطان عبد الحميد) استغرابه من وفرة الأجانب الذين تقدموا إلى القصر يطلبون عملا فيه حتى ولو بصفة خصيان وقال: لقد وصلني في أسبوع واحد ثلاث رسائل بلغة رقيقة يطلب أصحابها عملاً في القصر حتى ولو حراسا للحريم، وكانت الرسالة الأولى من موسيقي افرنسي، والثانية من كيمائي ألماني، والثالثة من تاجر سكسوني. وعلق السلطان على ذلك بقوله: من العجب أن يتخلى هؤلاء عن دينهم وعن رجولتهم في سبيل خدمة الحريم. فهؤلاء وأمثالهم كانوا يصلون إلى رئاسة الوزارة، ولذا فقد قال (خالد بك) مبعوث أنقره في المجلس العثماني بهذا الصدد: لو رجعنا إلى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية وارتكبوا السيئات والمظالم باسم الشعب التركي لوجدنا تسعين في المائة منهم ليسوا أتراكا.

- غرق السلاطين و الأمراء في الترف والملذات.
- الحروب الصليبية التي شنّت على الدولة والتي لم تنقطع منذ ظهورها إلى يوم انهيارها.
- الامتيازات التي كانت تمنح للأجانب اعتباطا بسخاء وكرم لا مبرر لهما بل كانت تمثل التفريط بحق الوطن في أقبح صوره، فقد منحت الدولة العثمانية، وفي أوج عظمتها وسلطانها، امتيازات لدول أجنبية جعلتها شبه شريكة معها في حكم البلاد. ولا أرى سبباً لهذا الاستهتار الا الجهل وعدم تقدير الأمور قدرها الحقيقي وتقدير قوة ودهاء الدول التي منحت هذا الامتيازات والعاقل لا يستهين بعده مهما كان صغيرا و ضعيفا.
- الغرور الذي أصاب سلاطين بني عثمان الذين فتحت لهم الأرض أبوابها على مصراعيها يلجونها كما يشاءون. وإن من يقرأ كتاب (الملك سليمان القانوني) إلى ملك فرنسا لا يجد فيه ما يشبه كتاب ملك إلى ملك أو إمبراطور عظيم إلى ملك صغير أو حتى إلى أمير، بل يجده وكأنه كتاب سيد إلى مسود. ومن يطالع صيغ المعاهدات، في أوج عظمة الدولة، وما كان يضفي فيها على سلاطين بني عثمان من ألقاب يكادون يشاركون بها الله تعالى في صفاته بينما تكون ألقاب الأباطرة و الملوك عادية، أقول إن من يطالع صيغ هذه المعاهدات يدرك إلى أي حد بلغ بهؤلاء السلاطين الجهل و الغرور.
- إدخال [ما سموه بـ] الدين في كل صغيرة و كبيرة من أمور الحياة والسير بعكس ما

يأمر به الدين، باسم الدين، حتى أصبح الدين ألعوبة في أيدي قبضة من الجهال يحللون ويحرمون على هواهم، ومثال ذلك إدخال أمر تغيير اللباس في نطاق الدين ثم لما أراد أحدهم إنشاء مطبعة في استانبول ووجد معارضة من قبل علماء الدين لجأ إلى السلطان وإلى حاشيته يطلب إليهم أن يقنعوا هؤلاء الجهال بفائدة المطابع فأمر السلطان شيخ الاسلام بأن يفتي بأن المطبعة نعمة من نعم الله وليست رجسا من عمل الشيطان كما أفتى العلماء من قبل فأفتى شيخ الإسلام بجواز إنشاء مطبعة شريطة ألا تطبع القرآن الكريم ولا كتب التفسير و الحديث و الفقه. وقد أنشئت أول مطبعة في استانبول سنة ١٧١٢م أي بعد أن كان قد مضى على اختراع المطبعة ما يزيد على قرنين ونصف القرن وبعد أن أنشأت فرنسا المطبعة الوطنية بنحو قرنين.

هذه الأسباب هي التي قضت على الدولة العثمانية وأنزلتها من شامخ عزها إلى حضيض المذلة والهوان. وإن من يدرس بإنعام نظر، كل سبب من هذه الأسباب المذكورة آنفا ويرى مدى تأثيره الواسع في المحيط الدولي لا يعجب من انهيار هذه الدولة العظيمة تحت سياط هذه الضربات بل يعجب كيف استطاعت أن تعيش ستمائة سنة وهي تتحمل هذه الضربات القاسية التي نزلت بها والتي لو نزلت على جبل لصدعته، ولكنها عاشت بفضل اختلاف أعدائها على تقسيمها فيما بينهم وبفضل إيمان أهلها وتمسكهم إلى حد ما بالإسلام.

ومن المؤسف المحزن أن يهدم أبناء أولئك المؤمنين بتنكرهم للدين و بتخاذلهم ما بناه آباؤهم وأجدادهم بجدهم وجهدهم وبما قدموه من تضحيات بالدماء و الأرواح...

وليس لتركيا[٢٩٧] ما ينجيها إلا الرجوع إلى الدين، فالدين هو الحصن الوحيد الذي يمكن أن يحمي الدولة من شرور الأعداء...

إن الحركة الاسلامية في تركيا على أشدها وأن العلمانيين هم رجال الحكومة وأما الشعب فهو بأكثريته مسلم متعصب ومتمسك بإسلامه، ويتبنى قضايا العالم العربي والإسلامي بحماس بالغ.

فعلى الحكومة أن تستفيد من هذا الروح الإسلامي وأن تستغل هذه الطاقة التي هي

٢٩٧- في هذا اليوم.م.

أقوى طاقة إذا فجرت تزيل الجبال. لقد انتصر العثمانيون بإسلامهم وتلاشوا بانحرافهم عن الإسلام أو بالأحرى بانحراف حكامهم عن أحكام الإسلام وإن كانوا ظلوا يرددون الإسلام بأفواههم، وليس لهم اليوم إلا الإسلام لكي يعودوا سادة محترمين.

***

هذا آخر ما أردنا تلخيصه في هذا الكتاب..

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد **الشيرازي**

الفهرس

كلمة الناشر ٣
المقدمة ٥
مؤسس الدولة العثمانية .....
السلطان بايزيد خان الأول ١١
إغارة تيمورلنك ١٢
السلطان مراد خان الثاني ١٦
السلطان محمد الثاني .....
السلطان بايزيد خان الثاني ٢٢
السلطان سليم الأول ٢٦
قتل الشيعة ٢٧
السلطان سليمان خان الأول ٣١
السلطان سليم خان الثاني ٣٨
السلطان مراد خان الثالث ٤٠
السلطان محمد خان الثالث ٤٣
السلطان أحمد خان الأول ٤٥
السلطان مصطفى خان الأول ٤٧
السلطان عثمان خان الثاني .....
السلطان مراد خان الرابع ٥٠
السلطان إبراهيم خان الأول ٥٣
السلطان محمد خان الرابع .....
السلطان سليمان خان الثاني ٥٨
السلطان أحمد خان الثاني ٥٨
السلطان مصطفى خان الثاني ٦٠

السلطان أحمد خان الثالث ٦٢
السلطان محمود خان الأول ٦٥
السلطان عثمان خان الثالث ٦٧
السلطان مصطفى خان الثالث ٦٧
السلطان عبد الحميد خان الأول..... ٦٩
السلطان سليم خان الثالث ٧٠
السلطان مصطفى خان الرابع ٧٦
السلطان محمود خان الثاني..... ٧٨
الوهابيون ومذهبهم ٧٩
السلطان عبد المجيد خان ٨٧
إثارة الطائفية..... ٨٩
إطلاق الإنكليز المدافع على جدة..... ٩٠
السلطان عبد العزيز خان ٩٢
مسألة قنال السويس ٩٥
عزل السلطان عبد العزيز..... ٩٧
السلطان مراد خان الخامس ١٠١
وفاة السلطان عبد العزيز..... ١٠٢
عزل السلطان مراد..... ١٠٤
السلطان عبد الحميد خان الثاني ١٠٥
خليفة العثمانيين ١١٤
محمد رشاد خان الخامس ١١٤
أواخر سلاطين بني عثمان ١١٥
يوسف عزالدين ١١٦
محمد وحيد الدين السادس بن مراد..... ١١٧
عبد المجيد بن عبد العزيز ١١٧

الخاتمة..... ١١٨
الفهرس ١٢٣

رجوع إلى القائمة